ALI SHARIATI

الآثار الكاملة (١٣)

علي شريعتي





النباهة والاستحمار

دار الأمير

النباهة والاستحمار

سلسلة الآثار الكاملة - ٤-

النباهة والاستحمار

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

هادي السيد ياسين

دراسة وتعليق

عبد الرزاق الجبران

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

إسم الكتـاب : النباهة والاستحمار

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : هادي السيد ياسين

دراسة وتعليق : عبد الرزاق الجبران

تصحيح لغوي : نوال سعادة النيحاوي

مراجعـــة : حسين علي شعيب

تنضيد وإخراج : زهرين

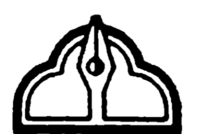
تصميم الغلاف : New Moon Ray

الطبعة الأولى : ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

الناشـــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:

دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

مؤسسة ثقافيّة للتأليف والترجمة والنشر

ص . ب 5551 / 113 الحمراء - بيروت - لبنان

هاتف: 717665 3 961 + تلفاكس: 276449 1 961 +

E-mail:daralamir@hotmail.com

سري جداً

الرقم: ١ من ٦ نسخ
١ ـ إلى : ٣١٤
٢ ـ من : ٦ و١
٣ ـ رقم التقرير : ٩٦٨٦/ هـ١
٤ ـ تاريخ التقرير :[١] ٢/٦/٢٥٣٦
٥ ـ الملحقات : ــ
٦ ـ مستلمي الخبر : ــ

٧ ـ المصدر : ١٣٥١٨
٨ ـ المنشأ : ــ
٩ ـ تاريخ وقوعه : أخيراً
١٠ ـ تاريخ وصوله إلى المصدر : أخيراً
١١ تاريخ وصول الخبر إلى قائد عمليات المنطقة :
١٧/٥/٢٥٣٦
١٢ ـ ملاحظات أمنية :

الموضوع : الدكتور علي شريعتي عطفاً على/ الحاقاً بـ

أخيراً قام الحاج السيد مصطفىٰ الخميني إبن الخميني المعروف برفقة الإمام موسىٰ الصدر رئيس المجلس الشيعي في لبنان مع خمسة من الطلبة الجامعيين الإيرانيين المقيمين في ألمانيا بالسفر إلىٰ العراق، وقد شوهدوا في المنطقة الزينبية بالشام وهم يقرأون الفاتحة عند مقبرة الدكتور علي شريعتي.

تعليق السبت ـ لم تعرف أسماء الطلبة الإيرانيين.

تعليق الأحد ـ بما أن السبت مطّلع لذا فإنّ الخبر صحيح.

تعليق هـ ١٦[١] ـ أؤيد تعليق الأحد.

١١٣٠ ٥/٦/٢٥٣٦

٣١٢

يلحق مع التقرير اليومي

---

(١) التاريخ المذكور هو السنة الشاهنشاهية (المترجم).

(٢) السبت والأحد وهـ ١٦ هي إسم المخبر والمسؤول عنه ومسؤول منطقة الشام (المترجم).

النص الفارسي للوثيقة المعرّبة

شماره ... نسخه

١ ـ به ... ٢ ـ از ... ٣ ـ شماره گزارش ... ٤ ـ تاريخ گزارش ... ٥ ـ پيوست ... ٦ ـ گيرندگان خبر ...

٨ ـ منبع ... ٩ ـ تاريخ وقوع اخيراً ... ١٠ ـ تاريخ رسيدن خبر به منبع اخيراً ... ١١ ـ تاريخ رسيدن خبر برهبر عمليات ٣٦/٥/٢٣ محل ... ١٢ ـ ملاحظات حفاظتى ...

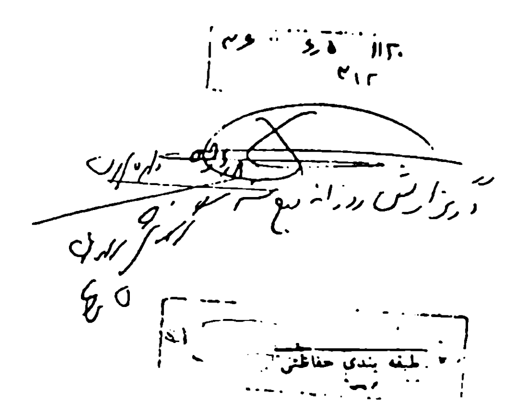
موضوع دكتر على شريعتى ... عطف / پيرو

اخيراً حاج آقا مصطفى خمينى فرزند خمينى معروف باتفاق امام موسى صدر رئيس مجلس ملى لبنان و پنج نفر از دانشجويان ايران مقيم آلمان به عراق مسافرت و بمنظور خواندن فاتحه كنار مقبره دكتر على شريعتى در زينبيه شام مشاهده گرديده اند .

نظريه شنبه ـ دانشجويان ايرانى بنام شناخته نشده اند .

نظريه يكشنبه ـ باتوجه به دسترسى شنبه مفاد خبر صحت دارد .

نظريه هـ ١٦ ـ نظريه يكشنبه مورد تاييد است .



طبقه بندى حفاظتى

٥٢-١٣١

إحدى وثائق جهاز الاستخبارات الإيراني أيام الشاه (السافاك)

والتي كُشف عنها بعد انتصار الثورة

وثيقة من نشاط وزارة خارجية الشاه في أربعين استشهاد شريعتي

عملاء الشيوعية العالمية وبعض الجامعيين المنحرفين الإيرانيين اتخذوا من موت (علي شريعتي مزنياني) فرصة لمهاجمة الحكومة الملكية.

الوثيقة التالية هي نص رسالة (عباس علي خلعتبري) وزير خارجية الشاه إلىٰ (جمشيد آموز گار) رئيس الوزراء وإلىٰ (معينيان) رئيس المكتب الخاص. أرسلها بناءً على التقرير الذي استلمه من (منصور قدر) سفير إيران في لبنان حول إقامة احتفال بمناسبة أربعين شهادة شريعتي. وهي أوضح من أن يعلق عليها:

الدائرة السياسية الثامنة

الرقم ٣٦٣٢/٦ ـ ٨/٣٢١

التاريخ ٧/ ٦/ ٢٥٣٦[١]

جانب السيد جمشيد آموز گار رئيس الوزراء

جانب السيد نصرت الله معينيان رئيس المكتب الملكي الخاص.

إن التقرير رقم (٣٠٣٤) والمؤرخ (٢٤/ ٥/ ٢٥٣٦) للسفارة الملكية في بيروت يتحدث عن أن عملاء الشيوعية العالمية وعدد من الجامعيين الإيرانيين المنحرفين استغلوا خلال الشهر الأخير موت (علي شريعتي مزيناني) ليشنّوا حملة ضد الحكومة الملكية في أكثر الدول العربية ومنها (لبنان) مستغلين وجود السيد موسىٰ الصدر المشهور بمعارضته للحكومة الملكية. وأُقيم احتفال بتاريخ ٢٣/ ٥/ ٢٥٣٦ في المدرسة العاملية، تحدث فيه كل من السيد موسىٰ الصدر وقطب زاده موجهين انتقاداتهم لسياسة الحكومة الملكية.

وكان مقرراً أن يقام الاحتفال المذكور في قاعة الأونيسكو ببيروت، ولم يحضر الإحتفال أي من الشخصيات اللبنانية سوىٰ السيد موسىٰ الصدر وياسر عرفات وقطب زاده

---

(١) هذه السنة من التاريخ البهلوي الذي إبتدعه الشاه محمد رضا مدعياً أن سلالته تعود إلىٰ ما قبل الأديان السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام نتيجة لعقدة النقص التي حملها لانقطاع نسبه إلى أبيه فقط (المترجم).

الذين تحدثوا للحاضرين وقوامهم مائتي شخص من أعضاء ميليشيا أمل التابعة للسيد موسىٰ الصدر وعدد من تلاميذ مدرسة صور المهنية.

وبما أن الأمور التي طرحت في الإجتماع المذكور كان مغايرة لروح التعاون والأخوّة القائم بين دولتي لبنان وإيران، لذلك فإن الرئيس الياس سركيس بعث بأسفه لإقامة مثل هذا الإحتفال، وأبلغ أسفه إلىٰ سفير الملك المعظم عبر رئيس جهاز الأمن اللبناني، كما إن وزير الخارجية اللبناني خلال لقائه يوم ٢٥/ ٥/ ٢٥٣٦ مع السيد قدر أكد أن الحكومة اللبنانية ستتخذ تدابير جدية لمطاردة الإيرانيين المنحرفين الذين شاركوا في هذا الإجتماع، وسوف لن تسمح بتكرار مثل هذه الأعمال في لبنان ضد حكومة صديقة كحكومة إيران الملكية.

نرسل لكم فيما يلي نص تقرير السفارة الملكية إضافة إلى ترجمة للمقالة التي جاءت في صحيفة النهار للاطلاع.

وزير الخارجية ـ عباس علي خلعتبري[١].

* * *

---

(١) صحيفة كيهان، العدد ١١٠٢٤، ١٩/ ٦/ ١٩٨٠م.

شريعتي في آراء المفكرين

(*) هذا الفصل ـ شريعتي في آراء المفكرين ـ قام بإعداده وترجمته الأستاذ موسى قصير.

الشيخ هاشمي رفسنجاني[1]

رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام
رئيس الجمهورية ـــ سابقاً
رئيس مجلس الشورى الإسلامي ـــ سابقاً

الدكتور شريعتي كان من الأشخاص الذين خدموا هذه النهضة حقيقة، وقد تركت نشاطاته خلال السنوات الأخيرة تأثيرها على طبقة واسعة لم نكن نحن على تواصل معها، وقد اجتذبهم نحو الساحة. خاصة أنه كان صاحب تجربة، أي أنه كان مُعلماً من ناحية وذهب إلى الخارج أيضاً، ثم أنه كان مطلعاً على العلوم الاجتماعية، وعارفاً بالحالة الروحية لجيل الشباب ولظروفهم، لذلك استطاع أن يؤثر في المجتمع، ويوجد موجة قوية.

---

(١) الدكتور شريعتي في آراء الشخصيات ج١، تأليف بجوم.

الأستاذ محمد رضا الحكيمي[1]

مفكّر إسلامي وصاحب مؤلفات عديدة

لقد أدرك الدكتور شريعتي جيداً الحاجات الثلاثة المترابطة:

١ ـ الحاجة إلى الدين المتطابق مع الزمان.

٢ ـ حاجة المجتمع لوجود قاعدة دينية.

٣ ـ الحاجة لتحقق هاتين الحاجتين لدى الجيل الشاب.

بعد أن أدرك الدكتور شريعتي هذه الحاجة قام برفد الثورة بقوة عظيمة، ونقل قطاعات واسعة من الجيل الشاب إلى جبهة الإسلام، ومنحهم الحركة. معتمداً في ذلك كله على مخزونه المهم من: اطلاع واسع على قضايا التاريخ والعالم المعاصر، وقدرة تحليل قوية، وذكاء فيّاض، ونبوغ فكري وأدبي، وتخصص في العلوم الاجتماعية، وصفاء فكري.

---

(١) الدكتور شريعتي في آراء الشخصيات ج١، تأليف بجوم.

مطهري وشريعتي وتحقيق الأهداف الإسلامية السامية

آية الله السيد محمود الطالقاني[١]

---

(١) تلقى آية الله السيّد محمود الطالقاني(قدّه) (١٩١٠ ـ ١٩٨٠م) العلوم الإسلامية في مدرسة الرضوية والفيضية بقم، ثم قدم إلى طهران عام ١٩٣٨ لتدريس وتبليغ المعارف الإسلامية.

اعتقل عام ١٩٣٩ بتهمة معارضة النظام البهلوي. كان يلقي محاضراته منذ العام ١٩٤٨ في مسجد «الهداية» بطهران، حيث كان مركزاً لتجمّع العناصر المثقفة المتديّنة في الجبهة الوطنية، وقد نجم عن ذلك تأسيس حركة الحرية فيما بعد. سافر إلى الأردن ومصر خلال الفترة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م، وشارك في النضال من أجل تأميم النفط، حيث ألقي القبض عليه بعد إنقلاب (٢٨ مرداد) بتهمة إخفائه للسيّد نواب صفوي زعيم فدائيي الإسلام في منزله، وقد سجن مراراً بسبب جهاده وكفاحه ضد النظام البهلوي.

عام ١٩٦٤م أدخل آية الله الطالقاني في السجن مجدداً لدعمه حركة الإمام الخميني(رض) وبقي فيه حتى العام ١٩٦٧م، ليواصل جهاده ضد النظام الجائر وينفى عام ١٩٧١م إلى (زابل) وبعدها إلى (يافت) بكرمان. عام ١٩٧٥ ألقي القبض عليه مجدداً بسبب خيانة أحد المنافقين، وحكم عليه بالحبس لمدة عشر سنوات. أطلق سراحه مع عدد من السجناء السياسيين في ٩/ ١١/ ١٩٧٨م ليعود إلى جهاده، ويقود المظاهرات ميدانياً، حيث كان=

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[١] ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٢].

لم يكن أيّ منّا يتوقع أن نجتمع بهذه العجالة في مأتم ابن عزيز آخر من أبناء الإسلام. فهذا المكان الذي أجلس فيه هو مكان لشخصين محققين وخطيبين وكاتبين إسلاميين، جلسا هنا وتكلما، ومن ثم استشهدا، ولست أدري ما هو مصيري؟! تلكما الشخصيتين وذينكما الرجلين سعيا لتحقيق الأهداف الإسلامية السامية، واستطاعا أن يستقطبا شبابنا الحيارىٰ والضائعين الذين كانوا تائهين متحيّرين بسبب جهلهم للأسس

= يُعتبر القائد الميداني الأول لحركة الثورة الإسلامية، وكانت الجماهير المسلمة ترفع صوره جنباً إلى جنب مع صور الإمام الخميني في الشوارع والجامعات. تولّى بعد انتصار الثورة الإسلامية رئاسة مجلس الثورة وعضوية مجلس الخبراء، وعيّنه الإمام الخميني أول إمام جمعة لمدينة طهران. عُرف رضوان الله عليه بعفة نفسه، وعلوّ همته، وشجاعة قلَّ نظيرها في تبنيه لقضايا الفقراء والمستضعفين حتى أطلق عليه الإمام الراحل لقب «أبو ذر العصر».

خلّف آثاراً عديدة على صعيد تفسير القرآن والمعارف الإسلامية، والقضايا الإجتماعية والسياسية (الناشر).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

والمباني الثورية والمحركة للإسلام، تائهين بين أفكار وثقافات الشرق والغرب، كلٌ يتجه إلى جانب. فللإسلام أبعاد وجهات مختلفة، وكل من حاول دراسة الإسلام وفهمه نظر إليه من بُعد وجهة خاصة أو في عدة أبعاد وجهات دون الإحاطة بجميع حقائق القرآن ورسالة الإسلام.

المرحوم الشهيد والمحقق الكبير المطهري قام هنا خلال عدة سنوات ببيان القضايا الإسلامية وشرح الأبعاد الفلسفية والتوحيدية للإسلام، ومسألتي العدل والمعاد، بلغة معاصرة واستدلال، في حقبة من الكبت الفكري وفي ظل نظام طاغٍ ومعادٍ للدين، ومسؤولين كانوا لا يريدون لشبابنا أن يتعرفوا علىٰ القضايا الإسلامية الأصيلة والعوامل الثورية المحرّكة، فنهض الأستاذ المطهري ووصل الليل بالنهار وبذل الجهد وكتب وتحدث لبيان ذلك.

ولا ننسىٰ في هذا المجال المرحوم الدكتور شريعتي الذي طرح الإسلام بأسلوب جديد من وجهة نظر علم الإجتماع الذي تخصص به. وعلينا أن لا نتصور أبداً وجود اختلاف بين تلكما النظرتين أو وجود تضاد بينهما. فعندما تنظرون إلى مسيرة تفسير القرآن منذ نهاية القرن الهجري الأول، تجدون أن القرآن الذي يشكل نبع الإسلام والدين

والوثيقة التي في أيدي المسلمين قد فسّرت بأساليب وأشكال مختلفة، وأن المحدثين والفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة والعرفاء قد قام كلٌ منهم بالغوص في أعماق هذا البحر العظيم من الوحي، واستخرج كل واحد منهم من درره وعرضوها علىٰ المسلمين، دون أن يكون هناك تعارض أو منافاة بينهم، لأن كل واحد منهم غاص بمقدار جهده وحدّه. فجاءت تفاسير المحققين المعتزلة كالفخر الرازي والبيضاوي وغيرهما، والتفاسير التي قام بها علماؤنا الإماميون، وبعد انتشار العرفان والفلسفة بين المسلمين نجد أن أكبر فيلسوف إسلامي متعمق كالملا صدر الدين الشيرازي دوّن تفسيراً وقد وضع كل واحد منهم تفسيره وكان مفيداً حسب زمانه، وكانت لديهم أخطاء، وقد اعترفوا بها، ثم امثال تفسير اللاهيجي ومحيي الدين، ورغم التفاوت الكبير بينهم، لكن لم يكن بينهم صدام ومواجهة، لعدم وجود تضادّ في معتقداتهم، بل كانت بحوثاً، وكان كل واحد منهم قد يتجاوز حدوده أحياناً، وقد يوجّه أحدهم الانتقاد الصحيح للآخر، لكن الرؤية القرآنية لدىٰ المسلمين اتسعت تدريجياً من خلالهم.

فما الذي حدث في السنوات الأخيرة حيث قدم محقق للفلسفة وللحديث وللكلام الإسلامي مثل الشهيد الكبير المطهري كل تلك المصادر الفكرية إلى الشباب، وشهيدنا

الآخر شريعتي الذي تفرّد بطرح نظرة جديدة إلى العلوم الإجتماعية وقدمها لنا وللعالم، حيث أن العلوم الإجتماعية هي علوم حديثة. فعندما قدم هذا البُعد وأدخله إلىٰ ساحة التحقيق وبيّن الإسلام من خلاله إلىٰ الشبان فتعلقوا به، واستقطب الذين كانوا منشدّين إلىٰ المذاهب الفكرية الأخرىٰ، انطلقت الصيحات هنا وهناك ضدّه؟ رغم أن الجميع قد بحثوا في حقيقة القضايا الإسلامية والقرآنية، وكانت بحوثهم تلك غير منسجمة أحياناً أو حتى متعارضة. فلماذا رفع البعض صوته عن إخلاص معترضاً، حتى استغلهم آخرون لبذر الخلاف. فإذا نظرتم إلىٰ كل آية وسورة في القرآن تجدون أن كل محقق ومحدث وعارف وفيلسوف منذ صدر الإسلام وحتى اليوم كان له رأياً فيها. إذاً فاختلاف وجهات النظر ليس أمراً جديداً. لأننا كنا نعيش في عصر استبداد واستعمار، وكان الإستعمار يرىٰ أن الذي يهدد مصالحه في الشرق والغرب هو الإسلام الأصيل، الإسلام المحرّك، الإسلام الثوري. إنكم تعلمون أن (غلادسوت) اليهودي رئيس وزراء الاستعمار البريطاني ورغم كل المشاكل والمواجهات التي كانت تشغله في الشرق الأوسط، لكنه أخذ القرآن وقال: (ما دام هذا الكتاب حاكم ومطاع بين عامة المسلمين، فإنه يقف بوجه نفوذنا) هل تظنون أنه قال ذلك من قبيل الإستهزاء أو المزاح؟ كلا.. هذا هو

الواقع. وكما ترون الآن لقد وضعوا البرامج لإبعاد القرآن عن مدارسنا وجامعاتنا ومحققينا وعن مراكزنا الدينية، وأخذوه إلىٰ المقابر للتيمّن به وللبركة وللإستخارة وما شابه. وقد أضحىٰ ذلك أمراً عملياً، لقد قاموا بذلك، وإني أتذكر أني في عام ١٩٤٠ م كنت عائداً من قم إلى طهران، ومن محلتنا بجنوب طهران، محلة (قنات أباد) حيث كان مسجد المرحوم والدي، بدأت بتدريس تفسير القرآن، كنت أواجه من طرفين، من قبل المراكز الدينية الذين قالوا: ليس من حقك أن تفسّر القرآن! يجب أن يقرأ القرآن كما هو، أن يقرأه الناس كما هو وأحياناً تقام مجالس الفاتحة علىٰ روح إنسان مجرم وخائن وسارق فاسد، قضىٰ عمره بالفساد، فتتلىٰ على روحه آيات من القرآن، فيصبح عندها من سكان جنة الخلد، ويقال أنه خادم بلده، ورحمه الله!.

لقد عانيت كثيراً حتى تمكنت من فتح باب دراسة القرآن وفهمه والتفكر فيه وتدبّره، وعدم الإكتفاء بقراءته والتبرك به، كما قال المرحوم سيدنا الثوري السيد جمال الدين من قبل، فمحور ارتكازه لتحريك المسلمين وإيقاظهم هو استنكار تهميش القرآن.

بما أن هذا المكان هو (حسينية الإرشاد) علينا من هنا أن

ندع تلك الخلافات ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾(١) وأن لا نغذي الخلافات، لأنها لا تزال موجودة للأسف. فلماذا يستغل إسم محققين ومظهرين لتقديم رؤية إسلامية للشباب، ويعملان من أجل القرآن والأصول الإسلامية، يستغل اسمهما للقيل والقال؟! في وقت علينا أن نفكر فيه ونتأمل ونجهّز أنفسنا ونتحد أمام هذه السلطة الطاغوتية المستبدة القهارة التي تقف خلفها كل قوىٰ الإستعمار، لنشغل أنفسنا بما قال ذاك وهذا، ونتهم هذا بترك الولاية وذاك بالتمسك بها، ونقيس عليهما ولاية الأشخاص. والذين يديرون هذا البحث أنفسهم لا يفهمون أساساً معنىٰ الولاية، لقد تلقينا الكثير من الضربات بسبب طرح هذه الأمور ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾(٢) لكن هذه الضربات ستكون كباقي الضربات سبباً لوعي المسلمين ويقظتهم.

أمامنا شهيدين من حسينية الإرشاد، فهي حسينية، وإرشاد أيضاً. لقد قاما من خلال هذه الحسينية بإرشاد الناس، وبإحياء رسالة الحسين أيضاً فكرياً وعملياً. فبعد إغلاق مسجد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٤.

(٢) سورة الطارق، الآيات: ١٥ ـ ١٧.

الهداية، تعرضت للقيود وسجنت، لكني آمل أن تستمر المسيرة. إذن فالحسينية قدمت الشهداء وستقدم الشهداء أيضاً. لأن الشهادة هذه كانت بعد إعلان أهداف وأسس الحكومة والولاية الإسلامية، أما الجلوس والبحث وقراءة الفاتحة للأموات بعد قراءة القرآن لن تضر أولئك، والسبب الذي دفعهم لإغلاق هذا المكان لأنه كان نقطة حركة وانفجار فكري. لا أقول أنه كان المكان الوحيد لهذه المهمة، لكنه كان مركز هذه الحركة. فالمؤسسين الأوائل لهذا المكان أي مرحومنا الشيهد المطهري قد انطلق بكتاباته ومؤلفاته من هنا. حسينية الإرشاد هذه ببابها وجدرانها ومبانيها تحدث عن أصوات إسلامية ونداء الإسلام الثوري، ونأمل أن تستمر كذلك. ونسأل الله أن يحشر هذين الشهيدين مع شهداء الإسلام العظام، وأن يحشر معهم هذا الشهيد الذي سجد لله أخر سجداته قبل عدة أيام فأدمى وجهه علىٰ الأرض[١].

* * *

---

(١) مجلة سروش، العدد ٩٥، ٢/ ٥/ ١٩٨٠م.

في متاريس (تل مسعود)[١] لم أحمل معي سوى كتاب (الصحراء)

(الدكتور الشهيد مصطفى شمران)[٢]

يا علي! لعلك تعجب عندما أقول لك أني ذهبت خلال

---

(١) تلة مسعود تقع في أعالي مدينة بنت جبيل ـ جنوب لبنان ـ حيث كان يرابط الشهيد الدكتور مصطفى شمران مع إخوانه في مواجهة العدو الصهيوني، وخاضوا في هذا المكان «تلّة مسعود» مواجهات ضارية مع العدوّ الصهيوني ثبت فيها المجاهدون ثباتاً منقطع النظير، وهزم العدوّ حينها شرّ هزيمة. (الناشر).

(٢) بعد إنتفاضة الشعب الإيراني المسلم في (٥/٦/١٩٦٣م)، ذهب الشهيد مصطفى شمران(ره) إلى مصر (في عهد الرئيس جمال عبد الناصر) لتلقّي تدريبات على حرب العصابات، وبعد إنهائه لتلك الدورة التدريبية أخذ على عاتقه تدريب المجاهدين الإيرانيين خارج البلاد. ونظراً للموقع الاجتماعي الذي يتميز به لبنان، فقد وجد في جنوب لبنان منطقة مناسبة لنشاطاته والتي شارك فيها العديد من قادة ورجال الثورة ومنهم نجل الإمام الخميني(رض) السيّد أحمد الخميني(رحمه الله)، وتمكن مع الإمام الصدر (أعاده الله) من تأسيس «حركة المحرومين» والتي سمّيت فيما بعد بـ«حركة أمل».

عاد إلى إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية، فوضع حجر الأساس لمؤسسة حرس الثورة الإسلامية من خلال تدريب أول مجموعة من الحرس. كما انبرى=

الأسبوع الماضي إلىٰ محور المواجهة[1] في (بنت جبيل) وبقيت عدة أيام في المواقع الأمامية في (تل مسعود) قضيتها بين المقاتلين، ولم أحمل معي هناك سوىٰ كتاب واحد، وهو كتابك (الصحراء) الصحراء التي وجدتها دنياً مليئة بالمغنىٰ والغنىٰ، صحراء نقلتني إلى السماوات وجعلتني أتصل بالأزل والأبد، صحراء سمعت فيها نداء العدم، وجعلتني أهدأ من ضغط وجودي، وأحلق إلىٰ ملكوت السماوات، لأبلغ درجة الوحدة في عالم وحدتي. . .

يا علي! إن المتدينين المتعصبين والجهلة سحقوك بحربة التفكير، ولم يتورعوا عن أي عداء وإتهام، والمتغرّبون الذين يسمّون أنفسهم زوراً بالمفكرين اتهموك بالرجعية، ووجهوا لك الإهانات، ونظام الشاه الذي لم يستطع تحملك، ووجد أن

= عن طريق تولي منصب مساعد رئيس الوزراء لشؤون الثورة، لحل المشاكل التي كانت تواجه النظام الإسلامي. عيّنه الإمام الخميني شخصياً وزيراً للدفاع.
إنتخب نائباً عن طهران في إنتخابات أول دولة لمجلس الشورى الإسلامي، ثم عيّنه الإمام الخميني ممثلاً عنه في مجلس الدفاع الأعلى.
وقام بتأسيس قيادة حرب العصابات في مدينة الأهواز عند بدء الحرب مع العراق، جرح في ميدان الحرب عام ١٩٨٠م، ثم عاد الى الجبهات بعد شفائه.
استشهد في ٢١ حزيران عام ١٩٨١م عند إصابته بشظية قذيفة مدفعية في جبهة الحرب بمنطقة الدهلاوية. (الناشر).

(١) المواجهة مع الصهاينة المعتدين، حيث كانت اسرائيل تشن اعتداءات يومية طمعاً في تهجير أهالي المنطقة ومصادرة أراضيهم (المترجم).

توقّدك يعارض مصالحه فكبّلك بالسلاسل ثم قتلك.

أحد الماركسيين المتظاهرين بالثورية قال في جماعة من أصدقائه في أوروبا: أن الدكتور علي شريعتي قد أخّر الثورة الشيوعية الإيرانية (٧٠) عاماً.

وأنا أقول: إن الدكتور علي شريعتي قد دفع بالمسيرة التكاملية للجهاد في سبيل الحق والعدل (٧٠) عاماً إلى الأمام.

يا علي! إن ذكراك واسمك وأقوالك وأفكارك كلها عندي نوع من صلاة، تقربني إلى الله أكثر فأكثر، يا علي! إنك حاضر في كل صلواتنا المخلصة، وترافقنا في كل تحليقنا نحو السماء، إنك شاهد وشهيد علىٰ كل المجاهدين الذين نالوا بفخر الشهادة في طريق الحق...

... وأنت أيها الرب الكبير قد منحتنا (علي) لتعلمنا طريق العشق والفداء وطريقته، ليحترق كالشمع وينير لنا الدرب، وها نحن نقدمه لك كأفضل هدية ليستقر عندك ويبدأ حياته الخالدة في ملكوتك الأعلى.

قسماً بالعدل والعدالة، أنك ـ علي شريعتي ـ كالموج المتلاطم تغلي في نداءات المظلومين ضد الظالمين ما دام الظلم والإضطهاد يُثقل كاهل البشر[١].

---

(١) من كلمة الدكتور مصطفىٰ شمران عند دفن الدكتور شريعتي.

الإمام السيّد موسى الصدر(١)

الذي صلى على جثمان شريعتي في دمشق ١٩٧٧م

كان لنا صديق، زميل ـ قائد من قادة الفكر الإسلامي، هو الدكتور شريعتي، توفي في هذه الفترة الأخيرة. وفي «الرسالة» التي ستطبع إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة، يوجد له نعي وصورة، والعدد القادم من الجريدة سيخصص له بإذن الله.

أحببت أن أنقل للإخوان، صورة عن هذا الرجل، وألقي

(١) السيّد موسى الصدر غنيّ عن التعريف، أسس حركة المحرومين في لبنان، والمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الذي ترأسه، وكان له الدور الأهم في إطلاق وتشريع المقاومة المسلحة ضد «إسرائيل»، ورفع شعار «إن شرف القدس يأبى أن يتحرّر إلاّ على أيدي المؤمنين» فمن هذا المبدأ عمل الإمام الصدر على بناء القاعدة الإيمانية العريضة على المستوى اللبناني، وناضل إلى جانب الإمام الخميني الذي كان يعتبره إبناً من أبنائه.

هذا النص أعلاه جاء في الإحتفال التأبيني الحاشد، الذي أقامه الإمام الصدر تأبيناً للدكتور علي شريعتي في الكلية العاملية في بيروت، وعلى أثره سحب الشاه المقبور الجنسية الإيرانية من السيّد الصدر. (الناشر).

بهذه المناسبة ضوءاً على البعد العالمي لحركتنا.

الدكتور شريعتي، أبوه رجل دين غير معمم، إسمه الشيخ محمد تقي شريعتي. وهو رجل فاضل أسس مؤسسة في خراسان اسمها «مجمع الأبحاث القرآنية». وأنا ألقيت محاضرات هناك، قبل عشر سنوات تقريباً.

الدكتور شريعتي، هو إيراني قروي من قرية «مازينان» في إيران، قرب «كوير» يعني الصحراء في إيران. تخرّج من جامعة «السوربون»، واختصاصه «علم الإجتماع الديني». وعاد إلى إيران، وكان يعطي دروساً في جامعة خراسان، ثم في جامعة طهران، ثم تحوّل إلى داعية ديني.

له أكثر من مئة وخمسين كتاباً. كتبه، محاضراته، في الواقع، محاضراته أربع ساعات، خمس ساعات، ست ساعات، سبع ساعات إرتجال، تُسجل وتُطبع وهكذا.

أديب شامخ، فكره إسلامي نضالي منفتح. إسلاميته، وطبقيته، وموقف رجال الدين، لم تجعل من دعوة الدكتور شريعتي، دعوة محافظة، رجعية، يمينية كما هو التقليد، لأن الدعوة الإسلامية، تعتبر في كثير من الأوساط، دعوة محافظة على الأقل، لكن دعوة الدكتور شريعتي للإسلام، دعوة تقدمية، ثورية، نضالية، أو ما نسميه نحن دائماً في إجتماعياتنا، دعوة

حركية، وليس دعوة مؤسساتية. يعني ليس الإسلام دكاناً يجب أن نحتفظ بمكاسبه، ونأخذ لأجله من الناس، ونسخّر الناس لخدمته، كما حصل بالنسبة للمؤسسات الدينية.

المؤسسات الدينية اليوم، لها أموالها، ولها أوقافها، ولها رجالها، ولها شؤونها وبروتوكولاتها، ولها خصوماتها، ولقاءاتها، ولها مكاسبها. تماماً مثل الإتحاد السوفياتي أو الصين، بعدما تحولوا إلى دول، ونسوا كونهم حركة إنقلابية عالمية. فبدأوا يفكرون بالإحتفاظ بمكاسبهم، ولأجل الإحتفاظ بهذه المكاسب، يجب التحالف حتى مع الشيطان، أو مع نصف الشيطان، أو مع ربع الشيطان بالتالي، فنرى أن الصين الشيوعية اليوم تلتقي مع القوى اليمينية في العالم للإحتفاظ بمكاسبها وللمنافسة مع الإتحاد السوفياتي، والإتحاد السوفياتي نفس الشيء.

إذاً حركة إنسانية، في مرحلة من المراحل كثيراً ما تتحول إلى مؤسسة، متى؟ عندما تشيخ. الحركة في بدايتها شابة، ناشطة، متحركة، تُخيف، تقتحم، تتقدم، إلى أن تنتهي أنفاس المؤسسين، فتشيخ، وتفكر كيف تحفظ رأسها، ولا تصطدم مع الناس، تتحالف مع هنا، وهنا، تفكر بالإحتفاظ بالمكاسب.

الدكتور شريعتي، في أحد كتبه، يقول: في فرنسا، رحت أشتري مجلة «جون أفريك Jeune Afrique، فوجدت أن

الأمن الفرنسي قد جمع نسخ هذه المجلة الفتيّة الإفريقية، قلت في نفسي: يا سبحان الله! فرنسا، معقل الحريات، مركز جميع أنواع الدعوات، من الشيوعية المتطرفة، إلى التروتسكية، إلى غير ذلك، إلى اليمين إلى الوجدانية، والوجودية، وكل أنواع الفكر؛ كيف فرنسا هذه تخاف من مجلة «جون أفريك» فتجمعها من السوق؟

السبب أن هذه مجلة شابة، حركة جديدة، تقتحم وتُخيف، بينما الحركات الأخرى كادت تتحول إلى مؤسسات لها وجودها.

طبعاً الدكتور شريعتي، كان أحد قادة الفكر الإسلامي في العالم. أفكاره قيمة جداً، وكان يحضر درسه الأسبوعي، حوالي ستة آلاف طالب وطالبة جامعيون أو متخرجون، في مؤسسة معينة باسم «النادي الحسيني للإرشاد».

طبعاً حُورب من قبل الحكم في إيران، وحُورب أيضاً من قبل مجموعة من رجال الدين، الذين يعتبرون الإسلام حكراً عليهم، وميراثه من حقهم، وهم وحدهم يفهمون الدين، ولا يحق لأحد أن يفهم غيرهم.

هذا الرجل بالفعل كان مصدر الإلهام، والتفكير والعطاء لكثير من الحركات الإسلامية، من جملتها حركتنا. ونحن

سنحاول؛ بإذن الله، بالإضافة إلى العدد القادم من «أمل ورسالة»؛ أن نخصص عدداً نلخص فيه أفكاره، ثم نترجم ونطبع أفكاره وكتبه ومحاضراته، حسب التيسير وفي حدود الإمكان، في لبنان، بإذن الله[١].

بدون شك، إن التيار الذي كان يحترم ويكرّم الدكتور شريعتي، كان تياراً ساحقاً، تقريباً الشبيبة المسلمة في إيران، وهو الذي جعل التيار الإسلامي في إيران أقوى من التيارات الحزبية الأخرى. يعني الجامعة كانت بيدهم، والتأثير الإسلامي كان عميقاً في المجتمع الإيراني، حتى أن الشيوعيين استسلموا للحكم، وبقيت الحركة الإسلامية تقاوم وتدافع وتناضل.

الدكتور شريعتي، من خسائر الفكر الإسلامي، والفكر الحركي، الفكر النضالي المعتمد على الإيمان بالله سبحانه، ولذلك نحن نعتبره فقيدنا وخسارتنا، ونكرّمه في هذا اليوم، يوم علي، مولاه ومولانا، ونبعث إلى روحه أيضاً، ثواب الفاتحة)[٢].

---

(١) السيّد موسى الصدر كان أول من نقل كتب شريعتي ومحاضراته إلى اللغة العربية، وأول كتاب كان «الشهادة» والذي قمنا بإعادة نشره ضمن الأعمال الكاملة لشريعتي، ولكنه ـ السيّد موسى الصدر ـ لم يضع إسمه على الكتاب كمترجم أو مُعرّب. (الناشر).

(٢) مسيرة الإمام الصدر. الجزء ١١ ص١٥٤ ـ ١٥٥ إعداد وتوثيق يعقوب ضاهر ـ دار بلال ـ ط١، سنة ٢٠٠٠.

لو كان شريعتي حياً لكان خير ناصر وساعد للإمام[1]

السيد محمود دعائي[2]

س ـ يرجىٰ التحدث عن دور شريعتي في يقظة الجيل الشاب وتأثير ذلك في انتصار الثورة الإسلامية.

ج ـ في البداية أؤكد أني لست أهلاً للتحدث عن هذا الموضوع، لكنني كطالب علم صغير أتحدث عن رأيي ورأي الطلاب الشباب وطلاب العلم من أمثالي حول هذا الموضوع، فإني فخور بأن جزءاً كبيراً من وعيي ـ إن كنت واعياً ـ ومن دوافعي الجهادية اكتسبته من قراءتي لأفكار المرحوم

(١) مجلة سروش العدد (١٠٢) ١٥/٦/١٩٨١م.

(٢) أحد أبرز أعضاء مكتب الإمام الخميني في النجف وإيران، رابط الإمام الخميني مع الدوائر الرسمية العراقية، سفير إيران في العراق بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، نائب سابق في البرلمان، رئيس تحرير صحيفة اطلاعات الرسمية (المترجم).

شريعتي . . . وإنني أتحدث هنا بصفتي أحد المتأثرين بآراء واستنتاجات المرحوم الدكتور في حياتي الإعلامية والثقافية .

عندما كنت ناطقاً باسم (جماعة العلماء المجاهدين) في الخارج، كنت أسعىٰ للإستفادة من الامكانات المتوفرة في الخارج مع المحافظة علىٰ الحيثية والاستقلال المطلوبين . وحينها كان الكثير من الأخوة في جماعة العلماء من الشبان المجاهدين يصرّون علىٰ أن الفرصة سانحة للتحدث إلىٰ الناس في الخارج بما لا يمكن طرحه في الداخل، وعلى ضرورة رفد نشاط الفضائح والعمل السياسي والتنظيمي بدوره من العلوم الإسلامية والأحكام السياسية الإسلامية، وأن تحدد ساعات لمتابعة هذا الأمر .

وكنّا نعاني من الشحّ في هذا المجال، ولم أكن في المستوىٰ الكافي في التحقيق والبحث لأسدَّ الثغرة الموجودة، وأطرح المواضيع المطلوبة، لذا كان لا بد لي من الاقتباس أو مساعدة الأصدقاء لي، إلىٰ أن بدأت برامج حسينية الإرشاد . عندها كان الأخوة الذين أصروا علىٰ تفعيل هذا النشاط ، يقومون بتزويدنا دورياً بأعمال الشهيد المطهري ومؤتمرات الشهيد الدكتور شريعتي، ويطلبون منّا نشرها .

وأنقل هنا تعليقاً لأقرب الناس إلىٰ الإمام الخميني وهي

زوجته، حيث قالت جملة لطيفة خلال مقارنتها لمؤلفات المرحوم المطهري والمرحوم شريعتي فقالت: الأول يكتب بعمق أكبر، والثاني يكتب بشكل أكثر جذابية.

والجذابية التي تحدثت عنها هذه الأم المثالية كانت نابعة من ضرورة النقل الحماسي والمؤثر للقضايا خلال جو الاختناق الذي كان موجوداً. في الواقع كان كلا هذين العظيمين من أفضل الأصدقاء والأفراد، ويدرك كل واحد منهما الآخر، ويقدران بعضهما البعض، ويتكاملان، فأحدهما يبذل جهده في التحقيق وأصول المسائل الإسلامية، بينما الآخر كان يشبع حاجات الجيل المتمرد في المجتمع، جيل الشباب المتعلم.

وإذا كنّا حينها كأتباع لسماحة الإمام الخميني نقدم مؤلفات المرحوم المطهري عند الحاجة علىٰ اعتبار أنها نصوص إسلامية سليمة، حيث كان يوصي الإمام بها دون أي تردد ويقبل كل ما كتبه المرحوم المطهري؛ لكننا كنا نعتمد علىٰ مؤلفات المرحوم الدكتور شريعتي في مجال الجوانب الإجتماعية والبحوث الإجتماعية الدينية لأنها كانت من اختصاصه.

والمرحوم الدكتور شريعتي لم يكن يدعي أنه فقيه

إسلامي جامع للشرائط، ولا فيلسوف لا تردّ آراؤه؛ بل كان يعتقد دوماً أنه قد بحث القضايا من منظار تخصصه في علم الاجتماع الديني.

وقد استمر الأمر علىٰ هذه الحال حتى برزت منظمة مجاهدي خلق، وكانت في أيامها الأولىٰ تطرح بشدة الدين والالتزام بالأصول الإسلامية، وقد لاقت إقبالاً لكونها منظمة سياسية إسلامية تعتقد بالتحرك المسلح والمواجهة المباشرة مع النظام الملكي واستطاعت أن تجتذب الدكتور أيضاً وتشكل محطاً لأماله.

فتحدث المرحوم الدكتور عنها في مواضع كثيرة، ودعا لها في مناجاته، لكن أي إنسان يدرك بوضوح أن مقصود الدكتور من ذلك هم الشبان والعناصر الصادقة والمجاهدة التي تواجدت في هذه المنظمة. وأود هنا ذكر بعض ما دونته من ذكريات في هذا المجال.

آنذاك كنت علىٰ علاقة بالمنظمة، وكنت أحسّ أن هذه المنظمة تتعامل مع المرحوم الدكتور بحذر وتقاطعه، ومن ناحية ثانية كنت أتعرض لضغط جماعة العلماء المجاهدين والشبان في الحوزة العلمية بقم للدفاع عن هذا التحول الذي يطرحه المرحوم الدكتور في الفهم الإسلامي، وكانت المنظمة

(خلق) تضغط أيضاً لئلا أذكر إسم المرحوم الدكتور، وكانت تلك مشكلة مبهمة بالنسبة لي لا أعرف لها سبباً!.

إلىٰ أن أعلنت المنظمة عن مواقفها عام ١٩٧٥م عندها أدركت سبب توجسهم من شريعتي ورفضهم له. فرغم احترامهم له في مواقفهم تلك، لكنهم أبرزوا حقدهم الشديد ضده.

خلاصة موقفهم هي أن العلماء والشخصيات الإسلامية لا يمكنها إدراك الواقع الإجتماعي ولمسه، وتسعىٰ بعض تلك الشخصيات لطرح الإسلام بشكل يتطابق مع العصر الجديد وحاجات العصر حتى تتقبله الطبقة الشابة والمثقفة، لكنهم فشلوا في ذلك.

ولأننا كنّا خارج البلاد كنّا نضطر للاتصال بالمنظمات والجماعات الأخرىٰ ومن بينها الماركسيون وفدائيو الشعب. حاولت أن أعطي أحد الأشخاص ـ الذين يقدّرهم الماركسيون في الخارج ويحسبون له الحسابات ولعله أحد الكوادر الرئيسية في اتحادهم الحالي كتب المرحوم الدكتور شريعتي. وبعد مدة جاءني هذا الشخص وهو يغلي من الغضب ويقول: لماذا تقوم شخصياتكم بالتحدث ضد الماركسية في هذه الظروف التي تقتضي الإتحاد ومواجهة النظام البهلوي، وأنت تروّج لمن

يهاجم أسس الماركسية.

فطلبت منه أن يعطيني نموذجاً لذلك. فقال: هذا علي شريعتي إنه يستخدم ذكاءه الخاص وأسلوبه المؤثر لضرب أسس الماركسية، ومواجهة الماركسية حالياً يعود بالنفع على النظام، فلماذا تقومون بذلك؟

فتأثرت حينها وتألمت لأن بعض شخصياتنا العلمائية كانوا يحذروننا من الترويج للدكتور بحجة أن أفكاره قد تكون التقاطية، وقد تؤدي أفكاره إلى استنتاجات ماركسية.

ولديّ ذكرىٰ من الإمام موسى الصدر[١]:

كان يقول بألم عميق: إني أرىٰ ضرورة ترجمة كتب المرحوم شريعتي إلى اللغة العربية، ونصحت بحذف بعض المقاطع التي قد يعتبرها الأخوة من أهل العامة أنها أفكار علوية. فعندما نتحدث عن الدكتور معهم يقولون أنه شيعي متعصب أو رافضي يتعامل بسلبية مع كل مقدساتنا. وأني إذا أردت أن أترجم مؤلفاته وأوزعها أو أذكرها لا بد لي من حذف هذه المقاطع. في حين أني في الداخل أتهم بأني استخف

(١) زعيم ديني وسياسي في لبنان، اختفىٰ خلال زيارة له إلى ليبيا عام ١٩٧٨م (المترجم).

بمقدسات المذهب الجعفري وأنال منها لأني أتحدث عن شريعتي، وأني أروّج لمتسنّن.

تلك كانت ذكريات لطيفة من التعامل المتفاوت والمتضاد مع أسلوب تفكير المرحوم الدكتور وبحوثه بين الآخرين.

هذا التضارب في المواقف تجاهه جعلنا نبحث عن رأي الإمام الخميني لئلا نكون نؤذي الإمام بالترويج للمرحوم الدكتور، وكنّا حينها نرافق الإمام دوماً، فأردنا أن نعرف رأيه.

وكان الإمام الخميني قد اطلع علىٰ جميع كتب الدكتور طبعاً، حيث أنه كان يستغل فراغه خارج البلاد، في تلك العزلة والغربة التي فرضت عليه، ليجعل منها فرصة للمطالعة. فكان يطالع المسائل العلمية المرتبطة بتدريسه، ويقضي باقي وقته في مطالعة الكتب التي تطبع في إيران آنذاك. وقد قرأ معظم كتب الدكتور حينها. لكنه كان يتحاشىٰ إبداء رأيه فيها، وكان محبو الدكتور يتألمون لأن الإمام لا يبدي رأياً واضحاً وصريحاً يؤيد الدكتور، كما كان معارضو الدكتور قلقون وعاتبون لأن الإمام لا يبدي رأياً معارضاً ويخطىء الدكتور.

إني أعتقد أن عدم رفض الإمام وعدم تعامله السلبي مع الدكتور أمر يستحق التأمل وذو أهمية. لكنه دافع عن

الشخصيات التي هاجمها الدكتور في كتبه مثل المرحوم المجلسي.

وفي أحد الأيام كنا في خدمة الإمام الخميني فقال لنا: لقد بعثوا أحداً من طهران ليلتقيني ويتحدث ضد مطهري وشريعتي، إني أعرف الشيخ المطهري، وأعرف كيف يفكر. جاءوا بكتابه (مسألة الحجاب)ووضعوه على الطاولة، وقالوا: إن كتابه هذا جعل جنوب طهران أيضاً يتخلّىٰ عن الحجاب. في حين أنني قرأت هذا الكتاب، وليس هو من أبعد جنوب طهران عن الحجاب، بل إنه قرّب الكثيرين من الحجاب.

كما أتوا بكتاب (معرفة الإسلام) لشريعتي، وقالوا: إنه ضد المقدسات الإسلامية. ولم أرغب بالرد عليهم حينها، لكني قلت لهم: إنه كتاب ضخم، فأين توجد القضايا التي تدّعون. وعندما أبرزوها لي، وجدت أنها ليست كما يدّعون، نعم لعله استعمل أسلوباً خاصاً لا أوافق عليه، لكنه ليس كما يدّعون من أنه مخالف لدرجة لزوم إتخاذ المواقف ضده.

إنّ الجرأة التي دفعت ذوي الإمام الخميني إلىٰ تأييد المرحوم شريعتي وحبهم له هي دليل علىٰ مالاحظوه من تعامل الإمام مع مؤلفات الدكتور. فخلال المقابلات التي أجريناها مع أبناء الإمام الخميني وزوجته أبدوا محبتهم

الشديدة للمرحوم الدكتور شريعتي.

إحدىٰ بنات الإمام الخميني التي تحمل فكراً إسلامياً عميقاً جعلها توفق لخدمات ثقافية واجتماعية جليلة في مدينة قم قد تحدثت عن المرحوم الدكتور في إحدىٰ مقابلاتها بشكل لائق جداً. وهذا يدل علىٰ جو الحرية الحاكم في بيت الإمام الخميني، والديمقراطية الخاصة المتوفرة فيه، بحيث يسمح لكل فرد أن يفكر كما يشاء حتى لو كان تفكيره مخالفاً للآخرين، لكننا لمعرفتنا بذوي الإمام الخميني وتعلقهم بالإمام وإيمانهم به، فإننا نعلم أنهم لا يمكن أن يدعموا أحداً ويمتدحوه إذا كان الإمام يرفضه.

س ـ ما هو دور شريعتي في تلاحم العلماء والجامعيين؟

ج ـ أشير هنا إلىٰ فترة تاريخية وهي كيف برز المرحوم شريعتي. فكلنا نعلم أن المرحوم شريعتي عُرِفَ بداية بين زملائه ومعارفه، ولم يشتهر في المجتمع كله. وكان أول من فهمه واستقطبه وعرّف به هو المرحوم الشهيد المطهري. فمن الواضح أن المرحوم المطهري هو الذي دعا الدكتور شريعتي إلىٰ حسينية الإرشاد ووضع له برنامج، فهناك رسائل موجودة بينهما لدىٰ السيد هادي خسروشاهي، وقد نشرت رسالة موجزة في صحيفة (إطلاعات) يبدو فيها كيف أن حسينية

الإرشاد كانت مؤسسة إرشادية قبل أن يؤدي المرحوم الدكتور دوره في تنوير الجامعيين وطلاب العلوم الدينية، حيث كانت الشخصيات العلمائية البارزة تلقي المحاضرات فيها، واكتشفوا الدكتور شريعتي واستقطبوه بينهم، ومن خلال هذه الحركة برزت مسألة تلاحم العلماء والجامعيين وتعاون المحقق المعمم والمحقق غير المعمم. وإني على اطمئنان بأن تلك الحركة كانت بداية مثمرة جداً لولا تدخل العناصر المعادية للعلماء، بداية لتعاون العلماء مع غير العلماء ودعوة غير المعمم للعمل من خلال محفل أسسه العلماء. ويمكن القول أن المرحوم المطهري هو مؤسس حسينية الإرشاد، وهو أول من أتى بالدكتور شريعتي إلى حسينية الإرشاد. لكن بعض الأيادي سعت للسيطرة على الحسينية وإبعاد المرحوم المطهري عنها، وخلق جو يصعب معه البقاء فيها، وأرادوا أن يطرحوا المرحوم شريعتي فيها كرمز للعلم والفكر الإسلامي المعاصر، وأن يحاصروا المرحوم المطهري ويقاطعوه، فأوجدوا في الحسينية ظروفاً لا يمكن أن يقبل لها المرحوم المطهري.

ففي الرسائل المتبقية من المرحومين المطهري وشريعتي نجد أنهما يتحدثان بصراحة عن تلك العناصر، وعلى رأسهم (ميناچي) فيذكرانه بحرقة وألم، وهو الشخص المتعدد الوجوه، الغامض الذي لعب دوراً عجيباً ومؤثراً في إبعاد

الدكتور عن العلماء، وتحريك المواجهة بين العلماء والدكتور.

س ـ يبدو أنّ هناك وثائق عن هذا الشخص كانت في السفارة؟

ج ـ نعم كانت هناك وثائق عنه، فهو كان عضواً في هيئة أمناء دار التبليغ[١] وكان يدعو الصحفيين الأجانب إلى بيت شريعتمداري خلال الثورة، وكان على علاقة مع معظم أعضاء حزب نهضة الحرية، وكان يطلع على مواقف الإمام الخميني في باريس وينقلها إلى بيت شريعتمداري لاتخاذ مواقف مشابهة لها. كان متعدد الوجوه، والساعي لابعاد المرحوم شريعتي عن المرحوم المطهري.

بعيداً عن هكذا عوامل وتدخل فإن ما طرحه المرحوم الدكتور من فهم جديد لقضايا الإسلام الاجتماعية والتاريخية كان مقبولاً جداً في محيط العلماء الشبان، ووافقت عليه شخصيات علمائية بارزة كثيرة رغم المشاكل التي كانت آنذاك، ورغم المواجهات التي كانت أجهزة أمن الشاه تعمل على إيجادها، ورغم ذلك كله كان هناك امتداح صريح متعدد

---

(١) دار التبليغ كان مركزاً لإدارة الحوزة العلمية للأجانب ولنشر الكتب والمجلات، وقد تولى الإشراف عليها السيد شريعتمداري بدعم من نظام الشاه (المترجم).

للمرحوم الدكتور، ومن بين ذلك ما قاله الشيخ المشكيني[١].

فآية الله المشكيني قام في إحدىٰ الليالي بزيارة حسينية الإرشاد شخصياً، واستمع إلىٰ محاضرة المرحوم الدكتور، وعندما عاد من تلك المحاضرة قال: لقد ذهبت إلىٰ هناك واستفدت، هناك كثيراً من الأمور التي لا نستطيع طرحها، لكنه يطرحها[٢].

وهذا يدل علىٰ الإنصاف والتعامل بصدق ومحبة. لكن هناك مسألة وهي أن هذا التأييد لا يعني أن علينا أن نأخذ بكل ما قاله الدكتور وطرحه في مؤتمراته ومحاضراته وكتبه. وهو بنفسه قال عدة مرات لا ينبغي أن تعتبروا ما أقوله هو نظريات فقهية إسلامية مائة بالمائة، بل إني أطرح استنتاجاتي وفهمي، وقد أكون مخطئاً. وكان يتمنىٰ أن يقوم أصحاب الرأي بنقد أفكاره وتصحيح كتبه، وهذا ما أوصىٰ به الكثيرين، ومنهم: محمد رضا حكيمي وبعض أصحاب الرأي.

سألت السيد الحكيمي مرة هل صحيح أن المرحوم

---

(١) آية الله الشيخ علي المشكيني، إمام جمعة قم ورئيس مجلس الخبراء لاختيار قائد الجمهورية الاسلامية، ويعدّ من الأساتذة المبرّزين في حوزة قم، ويعتبر صاحب مدرسة في علم الأخلاق.

(٢) يقصد شريعتي.

الدكتور أوصاك؟ فقال: نعم لقد أوصىٰ الجميع بنقد مؤلفاته، وحذف كل ما لا يتطابق مع الموازين الإسلامية وإصلاحه، وكان ينوي أن يفعل ذلك بنفسه، وأن يعيد النظر في كل ما كتب، لكن الأجل لم يمهله.

س ـ يذكر الدكتور شريعتي في أحد مؤلفاته أنه يفتخر بأنه مقلد للخميني وأنه لا يمكن أن يتخذ مرجعاً غيره. حسب معرفتك به ما هو إحساس الدكتور شريعتي تجاه الإمام الخميني؟

ج ـ من الواضح أن الدكتور شريعتي كان من عشاق الإمام الخميني والمخلصين له، ومعارضي الدكتور كانوا نفس معارضي الإمام الخميني. ولا أعني بذلك من يختلف مع الدكتور أكاديمياً، بل أولئك الذين أثاروا البلوىٰ والمشاكل، وكانوا يستعملون نفس الأسلوب ضد الدكتور وضد الإمام. يمكننا القول أن الدكتور كان مع الإمام في المعاناة من أعدائه، وكان لهما أعداء مشتركون، ولهما أصدقاء مشتركون أيضاً، وهناك يمكن تصور العلاقة بين الدكتور والإمام لو أتيح لها أن تقوم.

وبصرف النظر عن تصريحات الدكتور في المناسبات المختلفة ومنها ما ذكرته بقوله إني افتخر بأنني مقلد للخميني،

فإن ذلك كان عندما بلغه أن أحد المعممين قال في منبره: يكفي شريعتي انحرافاً أنه مقلد للخميني. عندها قال شريعتي إني أفتخر بأنني مقلد للخميني. أي أنه يقول أن هذا الإتهام هو أكبر مشجع ودعاية ومبعث فخر لي.

وعندما توجه الدكتور إلى الخارج، وعمل من خلال الإتحاد الإسلامي كان يحاول أن يقيم علاقة مباشرة مع الإمام الخميني، وبعث له الرسائل، وقام أحد الأفراد بنقل رسالة من الدكتور في أوروبا إلى الإمام في النجف، لكن جواب الرسالة وصل بعد استشهاد الدكتور. وكان الدكتور في رسالته تلك يحاول أن ينظم خطه الفكري والإعلامي المستقبلي كجندي في جبهة الإمام الخميني حسب تعبيره الدقيق في رسالته.

* * *

«أسيَّة الاستحمار في فكر شريعتي»

صحيح أن مشروع شريعتي الإصلاحي يقوم على أساس العودة إلى الذات، شأنه شأن باقي رجالات الإصلاح ـ مذ بدأو في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وبالذات ببداية عام ١٨٥٨م مع جمال الدين الأفغاني حسب تحقيب مالك بن نبي ـ مع فارق الكثافة الإصلاحية التي تميزٌ بها شريعتي في مفاصل العودة من جهة، وعلمية المنهج وتأسيساته من جهة، إضافة إلى شقين آخرين: أولهما؛ مُعطى التجديد. والثاني؛ كشف التزوير وزلزلة الثوابت الوهمية، بحيث كان اجرأ الإصلاحيين في آلية النقد للموروث السائد وأكثرهم شمولاً في الوقوف على تلك المهاوي.

.. صحيح أن مشروع شريعتي يقوم على ذلك (= العودة الغربلية) ومن ثم بناء آيديولوجيا يدخل بها إلى العصر لتأصيل

الحلول لهمومه وإشكاليته. إلا أنه تبقى المقولة الأكثر مركزية في أفكار شريعتي هي مقولة (الاستحمار)، والتي تصنف مسار شريعتي الإصلاحي على علم الإجتماع السياسي، وبالتأكيد هذا هو منحى شريعتي ومنهجه في فهم الإسلام، الأمر الذي جعله يبلغ ما بلغه من تلك الإصلاحات العريضة وبذلك العمق الذي غيّر كثيراً من مسارات التيار الإسلامي، إذ عين عودته إلى الذات تبتني على فهم الإسلام (اجتماعياً وسياسياً)(١) كما

---

(١) عُرِفَ تاريخ الفكر الإسلامي في مساراته الفلسفية والكلامية بتمركز مباحثه وانحصارها في (الذات الإلهية والميتافيزيقيا مطلقاً) وضاع عن انساقها مبحث (الإنسان ووجوده)، بل أهمل حدَّ التهميش المتعسف، الأمر الذي أفضىٰ إلى أن يغدو هذا التراث نظريًّاً تجريدياً، غير ذي جدوىٰ في الإجتماع الإسلامي، لاعتماد منهجهم المعرفي مقولة: «الإنسان من أجل الدين، ليس «الدين من أجل الإنسان»، وبالتالي ضاعت غاية الدين، كآيديولوجيا جاءت لأخذ الإنسان في صيرورة تكاملية توجهها (فلسفة التقدم، وتحقيق ماهية الوجود) في التاريخ.

هكذا أُس حتَّم لدىٰ القدماء أنَ يُفْهَمَ الإِسلام فهما «كلاميا وفلسفيا وصوفياً» بعيداً عن أي فهم مقاصدي، يدرك فلسفة الدين وغاياته الاجتماعية من أجل الوجود الإنساني، الأمر الذي جعل هذا النتاج القديم خاوي الوفاض، بل سبباً في انهيار الأُمة، ولهذا يجد الفرد المسلم، حلول ذاته ومجتمعه وحضارته في أنساق الفلاسفة والمتكلمين، حتىٰ آل ما آل إليه الوجود الإسلامي من نكسته الحضارية وسباته في قرون النوم، التي ما زلنا نعاني منها، لأنَّ الفلسفة على حد قول (حسن حنفي): تموت إذا ما انعزلت عن الإنسان. وإنَّ تلك الفلسفة القديمة لا تقضي على طاغ ولا تقيم صرح دولة (انظر؛ حنفي، حسن، متىٰ تموت الفلسفة ومتىٰ تحيا، مجلة عالم الفكر، =

هو معروف في مائزية منهجه، لِمَا يتكأ عليه من عقيدة علمية لها منهجها ومداخلها التي ينتهي بها إلى؛ أن الدين الإسلامي دين اجتماعي سياسي، لا علمي أو فلسفي أو صوفي أو غيرها من إتجاهات الفهم، أي لم يأت الدين في إطار تلك المقولات، وخدمة لمساقات العلماء والفلاسفة، وإنما جاء من أجل المجتمع الإنساني ككل (= الناس). . هذه الكلمة الأقرب إلى روح شريعتي من باقي كل الدلالات الوجودية؛ بحيث التصقت بها تأسيساته في أوسع نطاق، في مستوى يكن مع

= م١٥، ع٣، ١٩٨٤، الكويت).

فلقد كان الفيلسوف يعيش ترانستالية متعالية تحجمه عن خوضه المسائل الجزئية المشخصة، بل لا يمكن لديهم أن يكون الإنسان فيلسوفاً حتىٰ يكون نظرياً. بحيث إذا «ما ارتبطت بالنواحي العملية الدينية أو الاخلاقية، ولم تكن بحثاً نظرياً مجرداً فانها لا تكون فلسفة، كما عبَّر عن ذلك «هوسرل»، ولا يضر أن ذلك يحيل إلى وجهة مغايرة، المهم أنّ ذلك هو نسقهم. بينما الفيلسوف الحقيقي عند شريعتي هو صاحب النظرية الإجتماعية، المسؤول في وسط الصراع. وبالفعل هذا ما نجح فيه الغرب في حقبة الأنوار. إذ لا تجد فيلسوفاً إلا وطبَّق مذهبه في السياسة والإجتماع والاقتصاد والقانون والأدب والفن. سيما في التاريخ، وهو ما أخذ الوجه الأكثف مع كثير من فلاسفة الأنوار؛ في أنَّ الفيلسوف هو المحيط بفلسفة التاريخ، إذ ضمنا هو محيط بفلسفة الإجتماع، وبالتالي بفلسفة الإنسان. لذا كان الأنبياء أعظم الفلاسفة ـ بالمعنىٰ الحقيقي ـ لأنهم الأشخاص الوحيدون في إحاطتهم بتمام سنن التاريخ، وما كان ذلك إلا لأنهم الوحيدون أيضاً في وقوفهم على فلسفة الإنسان، لأنها تبقىٰ المشكلة الأوحد، إذا وقِفَ عليها وقِفَ على ما سواها، والعكس صحيح.

باقي الإصلاحيين، بل كان ذلك سبب نجاحه. فالدين لديه جاء كوعي إجتماعي لما يربط الياف (شبكة العلاقات الإجتماعية)[١] ـ كما اصطلح عليها تأسيساً مالك بن نبي ـ من انساق سياسية، وبالتالي صنع حالة الإِنسجام في هذه الشبكة، التي متى ما كانت، كان الوجود الحضاري أو ميلاد المجتمع كما يرى بن نبي.

هذا الاتجاه المنهجي في فهم الإسلام إجتماعياً وسياسياً هو الذي أفضى مع شريعتي إلى ذلك الابداع الإصلاحي (العودة) التجديدي (بناء الأيديولوجيا) الكبير في نتاجاته.

وجّه شريعتي الأيديولوجيا التي أراد بناءها من العودة إلى الذات إلى مسألة حل (شبكة العلاقات الإجتماعية)، وصنع

---

(١) كل الأنبياء والمصلحين، ومعظم الأيديولوجيات الإنسانية الصالحة جاءت من أجل صنع حالة الانسجام والتناسق في «شبكة العلاقات الإجتماعية»، ولهذا كان مبحث القيم (الاكيسولوجيا)، وهو المبحث المحوري بين المبحثين الآخرين للفلسفة، مبحث الوجود (الانطولوجيا)، ومبحث المعرفة (الايبستمولوجيا)، كونه (مبحث القيم) المبحث المُناط به خلق حالة التوازن والانسجام في تلك الشبكة، مع ثلاثية الحق والخير والجمال... تلك الشبكة التي مَرْكَزَ المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي علم الإجتماع ومسائله وحلوله على إشكالياتها، ليجد أنَّ الحضارات ودوراتها، نهوضاً وسقوطاً، مرهون بحالة الانسجام تلك. لذا جعل لكتابه (ميلاد مجتمع) عنواناً بديلاً هو شبكة العلاقات الإجتماعية.

الإنسجام الذي يحاول خلخلته وصنع نشازه الطرفُ القابيلي في جدلية (الصراع) على طول التاريخ. كيف؟

عاد شريعتي مع آليات فلسفة التاريخ، فوجد أن الإجتماع البشري على طول الخط التاريخي تشدُّه جدلية مركزية فحواها؛ أنّ كل إنعطافات وتغيرات التاريخ وحضاراته ومساراته تنضوي تحت فلسفة (الصراع)، إضافة إلى ما وجده في فلسفة الإنسان ـ تلك الفلسفة رفي الذي كان شريعتي الأرقى في مخاضاتها والأوفر في اعتمادها المنهجي، بحيث لا يمكن لديه حل المشكلة الحضارية دون فهم هذه فلسفة ـ التي تمثل التعريف الثاني لفلسفة التاريخ بعد فلسفة الإجتماع. إذ التاريخ هو فلسفة الإجتماع وكذلك هو فلسفة الإنسان في وجوده ـ لذا كان علم الإجتماع هو العلم الأول آلياً لدى فلسفة التاريخ ـ بما سيفضي ذلك من طرح مفاهيم ملحة ومركزية في فلسفة التاريخ من قبيل (الصيرورة، وفلسفة التقدم، وتحقيق الماهية الأسمى في العالم).

عموماً، إن (الصراع) الذي تقوم عليه حركة التاريخ، يتجاذبه طرفان عند شريعتي برمزية (هابيل، قابيل).. هابيل ويمثله (الناس)، وقابيل وتمثله ثلاثية رمزية. أصّلها في علم إجتماعه القرآني، وهي؛ (فرعون، قارون، بلعم بن

باعورا). . أي السلطات الثلاث التي حملت الاستغلال والاستعباد والاستبداد على طول التاريخ، وأخيراً ما ترشّح عن العصر الحديث في إطار (الإستعمار)، الممثل الرسمي لتلك المفاهيم راهناً.

هؤلاء ـ قديماً وحديثاً في فكر شريعتي ـ كانوا يتمركزون في إنجاز غاياتهم على مسألة (الاستحمار) وآلياتها الخفية، بحيث يقوم الطرف القابيلي بتسخير الناس كالحمير[١] ـ ومن

---

(١) يعيدني هذا إلى فلسفة مقال «حمار أنطاكية». . . إلىٰ وعي مطابق عند جبران خليل جبران، بما عُرِفَ به من فضحه للتاريخ الاستعبادي مع الإنسان، في كل جهاته، سواء مع الطغاة، أو الارستقراطيين، أو الدين المزوَّر، سيما الأخير، وما عرف به جبران في تمرده على تلك التقاليد، المصنوعة من قبل الصنف الأخير. . ففي مقالة فلسفية اتخذت شكل قصة دلالية موجزة، لا تحمل حيثيات القصة القصيرة، وظَّف «جبران» تلك حادثة رمزية أرقىٰ توظيف في توجيه تلك الحالة، إذ حينما مرّا (حماران) من فوق جسر إنطاكية الصخري، وجدا على أطراف الجسر حجراً مكتوب عليه: «هذا ما بناه الملك الروماني فلان. . ». . وبعد حوارية استفهامية بين الحمارين (الحفيد والجدّ) تنتهي ـ بعد أنّ يعرف الحمار الصغير أنْ صخور الجسر نقلت على ظهور حمير أنطاكية وليس على ظهر ذلك الملك الروماني ـ بأن يقول الحمار: كان الأحق أن يكتب؛ هذا ما بناه حمار أنطاكية. وهو عين ما كان مع الناس على مرّ العصور، فهم من بنوا الأهرامات، وأرصفو سور الصين وعلّقوا حدائق بابل، وغيرها مما ورثته الحضارة لنا، وكل هذا وللأسف ما زلنا نقول، هذا ما بناه الفراعنة، وذاك ما بناه لويس الرابع. . وهذا ما تركه تيمولنك. وهناك شيَّد المعتصم بالله.

هنا جاء الإنتزاع اللغوي للإستحمار ـ بخلخلة (شبكة العلاقات الإجتماعية)، وذلك بتزوير كل آيديولوجيا تحاول أن ترتقي بهذه الشبكة، سواء كانت أيديولوجيا دينية سماوية أو آيديولوجيا وَقَفَ عليها الإنسان بوعيه. إذ هو قادر بعقله أن يقف على مناحي كثيرة منها، بدلالة أنه (رسول باطن) حسب تعبير الحديث الشريف. فالسلطة السياسية (فرعون أو المَلِك) كانت تستعين بالسلطة الإقتصادية (قارون أو المالك)، والإثنتين معا تستعينان بالسلطة الدينية (بلعم بن باعورا) لتدشين سلطتهم الإستعبادية. فكما أستعان ملوك المجتمعات القديمة بالكهنة والسحرة في إستحمار الناس، كذلك إستعان فرعون ببلعم بن باعورا، وعلى نفس المنوال إستعان القيصر بالقساوسة[١]، وهو الأمر عينه مع الخليفة الأموي والعباسي وباقي السلاطين في ديار المسلمين في إستعانتهم بالمزوّرين الذين برروا أعمالهم المخالفة لمسار رسول الله ﷺ، حيث يقوم الدين المزوَّر بالدور الأكبر في تشويه الدين الحقيقي ـ كون الدين الحقيقي يحول بينهم والاستعباد، ويدفع بالانسان في صيرورة باتجاه تحقيق ماهيته المرسومة له في غاية الوجود ـ

---

(١) ولهذا كانت الناس تهتف أيام الثورة الفرنسية: اشنقوا آخر قيصر بإمعاء آخر قس. كونهما كانا يشكلان طرف قابيل إزاء الناس (طرف هابيل).

وبالتالي تحويل الدين من آيديولوجيا دافعة محركة نابضة إلى أيديولوجيا راكدة ميتة رجعية، ومن هنا أيضاً يمكن معرفة تجدد الأنبياء والرسل بين فترة وأخرى، وذلك لفضح ما أستجد من التزوير والتمرُّد عليه. لذلك أراد شريعتي في الأيديولوجيا الجديدة التي أراد بنائها بالعودة إلى الذات ووعي العصر هو ـ إضافة إلى تغطية الواقع العاري وصنع الإنسجام في شبكة العلاقات الإجتماعية ـ امتلاك الوعي والنباهة الكافية لدحض وكشف مخططات التزوير التي يقوم بها الطرف القابيلي في الاستعباد. إذ الرسالة الإسلامية جاءت من أجل (تحرير العباد من عبادة العباد (= الاستعباد) إلى عبادة رب العباد (= الحرية الربَّانية).

لشريعتي أُس في الإِصلاح يقول: على المفكر والمصلح والمثقف أن يعي لحظته التاريخية وواقعها وما يدور فيها من اشكاليات. أي هنالك وعيان عند شريعتي يوجبهما على المصلح:

١ ـ الوعي التاريخي مطلقاً (فلسفة التاريخ)

٢ ـ الوعي التاريخي للَّحظة المُزامنة وإدراك العصر الذي يتحرك فيه وله المصلح بما تستدعيه مسألة (الثابت والمتغير) في الفكر الاصلاحي. فإختلاف الواقع يحتّم إختلاف الحلول،

وبالتالي لا يمكن الوقوف على حلول جديدة حتى يحاط بإشكاليات الواقع الجديد.

تبعاً لهذا (الأُس) وجد شريعتي أن إشكاليات العصر الراهن ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بـ(الاستعمار الحديث) بالدرجة الأولى، وان الآلية المحورية للإستعمار الحديث هو (الاستحمار) عينه، ولكن بطرق أغرب ابتكاراً في الخفاء، بل إن الاستحمار على حد قوله: قد بلغ إلى درجة من القوة والشياع في زماننا هذا ما لم يسبق له نظير على مرٍّ التاريخ.

هذا ما كان في جهة الآخر (الغرب).

أمّا في جهة ألأنا، فقد وعى شريعتي فيه إتجاهين هما: (الإستحمار الديني، والتغريب)، والأول هو الأخطر، لعلة؛ أن الدين يمثل هوية مجتمعاتنا، وموجِّة مساراتها، إن سلبا وإن إيجابا. ومع ذلك فهما يشكلان سويَّة في معظم الأحيان أداة إستحمارية بيد (الإستعمار الجديد). وفي هذا يتضح جلياً تواسق شريعتي مع جمال الدين الأفغاني في جبهتي الإصلاح والنضال الذي تميز بهما مساره؛ (الإستعمار الخارجي، والإستبداد الداخلي).

ولكن ما هي ماهية الإستحمار في إصطلاح شريعتي.

لا يُخاض في ذلك حتى يُطرح الإصطلاح المقابل للإستحمار وهو (النباهة) لما يفرضه المنهج المدخلي هنا، كون النباهة تدخل في تعريف الإستحمار.

يُقسِّم شريعتي النباهة إلى قسمين: (فردية وإجتماعية)، وأحياناً يعبر عنها بالدراية وتارة بالوعاية. علماً أن مسألة النباهة لديه تقع تحت مقولة (الوعي)، وبإطار أعمق واتكاءً على أسس مؤصَّلة لديه جعل شريعتي النباهة هي، (الوعي السياسي). ولكن ليس السياسة بالمعنى الإعلامي المتداول ـ كما تحرَّز هو ـ وإنما بالمعنى الافلاطوني، الذي يشير إلى وعي الفرد وشعوره بالمصير التاريخي لمجتمعه، وعلاقته بالمقدرات الراهنة بالنسبة إليه وإلى مجتمعه، وإلى الشعور بإنضمامه وإرتباطه بالمجتمع وشعوره بالمسؤولية تجاهه.. أي وعيه للوجود وغاياته، ولفلسفة الحياة وما تنطوي عليها من شبكة العلاقات، سيما في الرباعية المحورية: (الإنسان ـ ذاته)، (الإنسان ـ المجتمع)، (الإنسان ـ الطبيعة)، (الإنسان ـ الله). ولهذا أدرج كلا النباهتين تحت ما اسماه بـ(الوعي الوجودي)، إذ (الذات، المجتمع، الطبيعة، الله) مجتمعةً تشكِّل الوجود بالنسبة للإنسان.

ومن هنا يمكن أن ندخل إلى الاستحمار ببساطة

ووضوح، فهي بكلمة واحدة: كل ما يسلب تَيْنِكَ النباهتين.

فالإستحمار لديه؛ تزييف ذهن الإنسان ونباهته وشعوره وحرف مساره عن النباهة الإنسانية، فرداً كان أم جماعة. . فأيُّ توجيه ودافع يفضي إلى سلب تينك النباهتين ـ عند شريعتي ـ دافع إستحماري، حتى ولو كان هذا الدافع من أكثر الأمور قدسية وأقدسها إسماً. . أن أي عمل يقع في طريق هاتين النباهتين ما هو إلا وقوع في العبودية، بل إن أي مسألة تُعْرَض، فلسفيةً كانت، أم علمية، أم فنية، وإن كانت قضية تقدم مجمع، فإنها إن كانت عثرة في طريق النباهتين فإنها دعوت كاذبة مزوَّرة عاقبتها الذل والعبودية، لأنها ليست إلا تحذيراً للافكار[١].

تنصب **دينامية الإستحمار** على اتجاهين.

أولهما: التجهيل. بتحريك الأذهان إلى الجهل والغفلة عن القضاية المصيرية.

الثاني: الإلهاء. بإلهاء الإنسان عن الحقوق الكلية بالحقوق الجزئية. بما يقع تحت فلسفة (الأهم والمهم) و(فقه

---

(١) يمثل هذا الإطار معياراً من معايير شريعتي للأيديولوجيات السياسية من الثقافة في مسألة الصواب والخطأ أو الحق والباطل.

الأولويات)، بإشغال الإنسان في المهم دون الأهم وفي الهامش دون المركز.

عن هذا الاستحمار الذي استفاده شريعتي عن فلسفة التاريخ وعى الواقع المعاصر وإشكاليته. إذ كانت مساراته تدور في هذا الإطار، سواء ما كان من (الأنا) أو ما كان من (الآخر)، الأمر الذي حتَّم عليه تكثيف الطرح والتأصيل في هذا الإتجاه فكان هذا الكتاب.

ـ إشارة ـ

اعتمدنا حيثيات التصحيح والتحقيق ـ من جهة الأمانة العلمية كنتاج، ومن جهة الأمانة الشرعية ـ على وصية الدكتور المعلم علي شريعتي التي تركها قبل استشهاده رحمه الله سبحانه وتعالىٰ.

فمن آلامه هناك، هو قلقه على ما لاح نتاجاته كونها، «طُبِعَتْ على شكل مسودَّات مليئة بالاغلاط، وذلك لقلة الإمكانات وكثرة المشاغل»[١] إذ أنَّ ـ على حدِّ قوله ـ، «كل ذلك كتبته وأنا منفي أو تحت ظروف ضاغطة ومؤامرات محاكة، وفي حالٍ كنتُ انتظر المصيبة في كل لحظة» ولهذا

(١) النصوص بين مزدوجتين تعود إلى وصيَّة شريعتي.

السبب طلب في الوصيَّة ـ وهو مستندنا ـ أنْ: «يعاد النظر في هذه الكتابات من الناحية العلمية والفنية وتصحيح الأخطاء اللفظية والمعنوية وتطبع مرَّةً أُخرىٰ».

هذا ما كان عليه الحال مع النتاجات في اللغة الأصل (الفارسية)، فكيف مع الترجمة. وهي مرحلة ثانية في صنع الدلالة، سيما ما عرف من الإشكالات الموجّهة إلى مؤلفات شريعتي المترجمة مما يعانيه من أخطاء تصل أحياناً إلى حدٍّ بائس جدّاً كما هو الحال مع كتابه هذا (النباهة والاستحمار). إضافة إلى أنَّ معظم نتاجات شريعتي هي عبارة عن محاضرات[1] ثم أُفرغت عن شريط التسجيل، وهذه تستدعي أخطاء إخراجية في جهات عدَّة، سيما أنَّ حيثيات المحاضرة مغاير لحيثيات وإقتضاءات الكتابة، فلَكَم سيئةٍ تُتَّخذ حسنةً في المقابل والعكس صحيح. ومع هذا ـ بما يضيف إلى عبقرية الرجل سمات وسمات ـ ان ذلك لم يوهن ما نزل على الورق، بل إنك لا تشعر ولا تميّز بين ما هو مكتوب بيده، وبين ما حاضر به.

إضافة إلى أن الترجمة لم تقم على يد متخصصين، بحيث أعتمد غالباً المنهج الحرفي، وهو أبرز اشكالات

(١) كانت المحاضرات السبب الأبرز لمنح شريعتي صفة المعلم.

الترجمة، وعلى حدِّ قول أحد خبراءها: «أنَّ الإخلاص فضيلة في كل شيء إلا في الترجمة»، والاخلاص هنا إشارة إلى النقل الحرفي، دون المضمون والمحتوىٰ، سيما مع ما ينبثق إشكالياً في أُطر الاصطلاحات التي تتطلب دلالة مفاهيمية. أو إصطلاحية المقابلة. حينما لا يوجد توحُّد علمي معها. إضافة إلى المفارقات الجغرافية، التي تحمل اختلافات دلالية وإقتضائية سواء كانت مذهبية أو عرفية أو تاريخية، أو غيرها مما تفرضه زمَكانية المحاضرة والنتاج.

من هنا تكون الإحاطة العلمية بفكر شريعتي وملابسات حقبته وشخصيته وجغرافيته، وإنتماءه ذا جدوى، بل أولىٰ واحق في تصحيح وتحقيق نتاجات شريعتي، وأقرب إلى مُراد وصيته، بل هو ذلك كما نعتقد. كما إن أحقية (كان يقول)، غير أحقية (كان يرىٰ)، سيما مع التوثيق التاريخي، فالثانية أصوب، ومنهجنا في ذلك على هذا النسق إذ الإحاطة المعرفية لاراء المعلم أو نسبة منها، تأخذ منحىٰ؛ (كان يرىٰ)، ومحور الإحاطة المعرفية هنا، تبداء من الإحاطة بالكليات والقواعد الفكرية والفلسفية التي يؤمن بها المعلم. وإن لم تترجم جميع نتاجاته، إذ كل مفكّر يدور في جميع المفاصل التي يخوضها على أساس تلك الكليات والمبادىء التي يتبناها، بحيث تمثل مداراته، أينما حلّ في كتبه. فكما هو معروف في المؤسسة

الدينية، أنَّ كثيراً من الفضلاء الذين وصلوا إلى مرحلة متاخمة للاجتهاد، يستطيعون أن يقرروا فتوىٰ المجتهد الفلاني في مسألة ما. وعلَّة ذلك، هو إحاطتهم بمباني اولئك المجتهدين، إذ المبنىٰ يخبر عن البناء، فالإحاطة بتلك الكليات تمنحهم القدرة على التفريع، وذلك شأن الفتوىٰ.

وفي هذا نخطو خطوة في خدمة الاسلام مع الخطوة التاريخية لـ«دار الأمير» في البلاد العربية، بترجمة ونشر فكر شريعتي، الذي طالما تألمت لتقاعس الكثيرين عن ترجمة وطباعة نتاجه خوفاً على الصيت والخبر، ومع كل هذا يتشدقون في مجالسهم بأفكار شريعتي.

نسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يتقبّل منّا ذلك غفراناً لما عليه ذواتنا.. والحمد له وحده لا شريك له من المال والجاه والقيم المنحطّة.

عبد الرزاق الجبران

بسمه تعالى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين. وبعد، فهذه سلسلة خطابات القاها الدكتور علي شريعتي رحمه الله في قاعة (حسينية الإرشاد) بطهران سُجِّلَتْ على أشرطة، ثم نُقلت كتابةً على الورق، بدون تغيير أو تطويل أو تقصير أو تقديم أو تأخير، فجمعت بين دفتي كتاب سمي (خود آگاهى استحمار) أي (النباهة الاستحمار). ونقلتها إلى العربية فكان تاريخ الفراغ من نقلها ٣ جمادى الثاني ١٣٩٩هـ الموافق ٣٠ ابريل ١٩٧٩ ميلادي. وقد اجتهدت أن أُترجم نفس العبارات الفارسية إلى العربية بدون دخل وتصرف في شكلها وفي قوالبها، مع الاحتفاظ بالمعنى الكلي للمواضيع. آملاً أن يستفيد منها القارىء الكريم نفس الاستفادة من أصلها الفارسي والله خير موفق ومعين.

آبادان ـ هادي السيد ياسين آل باليل الموسوي

ـ ١ ـ

الأنا.. والمصير (مسألة وعي الوجود)

إن الحالة الخاصة التي نعيشها «نحن» و«أنا» تقتضي أن نقول كلمتنا الأخيرة أولاً، ونقرأ الكتاب من آخره. ومن هنا فإن الموضوع قد يبدو مملاً للذين لم يتعرفوا بعد على الظروف الفكرية للمسائل والقضايا التي أعرضها ،فيحتاجون إلى مزيد من التأمل والدقة. وعلى كلٍّ فإني سأقول في هذه الجلسة ما كان ينبغي أن أقوله في عدة جلسات لعدم الفرصة، وسأقول في أول كلمتي ما كان ينبغي أن أقوله في آخرها. وهذا ما يزيد في إبهام الموضوع، ولكن لا حيلة لنا.

إنَّ زبدة وأساس الكلام الذي أُريد أن أبوح لكم به، هي قضية فكرية وليس قضية علمية(١). وبقدر ما أنها كلمة أساسية

---

(١) أي انها مسألة تقع تحت إطار مقولة «الوعي» لا مقولة «العلم»، إذ الأولى أعمّ من الثانية لدى شريعتي، إضافة إلى أنّها «معيارية» قبل أنْ تكون «وصفية» حسب الاصطلاح المنهجي. . أي انَّ مدارها «التغيير» لا «التفسير»، وبالتالي يكون «الوعي» الدينامية المركزية لصيرورة الفرد والمجتمع في التاريخ.

فهي لا تحتاج إلى الشرح والتفصيل. وهي: أن نكون نبهين كيلا نرى أنفسنا مغتنين فكرياً بالكفاءة العلمية، لأنها كفاءة كاذبة وشبع كاذب ونوع من الغش الكبير الذي يختص به المثقفون والمتنورون في زماننا. فحين يرى المثقف نفسه مشبعاً بالعلم، وينال دراسات عالية، ويكتسب معلومات واسعة ورفيعة، ويرى أساتذة كباراً وكتباً مهمة، ويجد الأراء والنظريات البديعة ويتعلمها، يجد في نفسه رضى وغروراً، ويظن أنه بلغ من الناحية الفكرية إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه الإنسان الواعي. وهذا انخداع يبتلى به العالم أكثر من غيره. إذ لا يظن الاستاذ، أو الفيزيائي، أو الفيلسوف، أو الصوفي الكبير، أو الأديب، أو المؤرخ أنه يمكن أن يكون لا شيء من الناحية الفكرية، وأنه في مستوى أقل العوام شعوراً. وحتى الأمي الذي لم يأنس الخط أرقى منه منزلة في الدراية الشخصية، وفي معرفة المجتمع، ومعرفة الزمان ولكنه كذلك.

إن كون العالم جاهلاً وبقاء المثقف عاطلاً من الشعور، أو اعطائه العناوين والألقاب البارزة، كالدكتور والمهندس والبروفسور وأمثالهم لحالة مؤلمة جداً، فيما إذا كان فاقداً للفهم والنباهة والشعور بالمسؤولية تجاه الزمان، وحركة التاريخ التي تأخذه معها هو والمجتمع.

إن خطر بقاء العالم جاهلاً وكونه أخرس وأعمى ولا

شيء. لهو خطر كبير جداً، لأن الإنسان إذا أُشْبع بالعلم لا يشعر بالجوع الفكري، والشيء الذي يتطلع إليه العالم في هذا الزمان هو (المسألة الفكرية) منفصلة عن (المسألة العلمية).

إختيار المقرر

إن المجتمعات في العالم الثالث؛ أفريقيا، آسيا، أميركا اللاتينية، هذه المجتمعات المتأخرة من الناحية الصناعية، المنحطة في تقدمها، التي لم تصل بعد إلى مستوى التلميذ الأوروبي والأميركي في شتى التعاليم الفنية والفلسفية. . هذه المجتمعات الفقيرة تماماً، تملك قدرة مجهَّزة بأسلحة تقف مكافحة ضد الغرب بكامل أسلحته، وتمام عدده وعدته، فتجبره على الخضوع والاستسلام. في الوقت الذي يمتلك الغرب قدرات تكتيكية وعلمية وفلسفية عالية، بالإضافة إلى شرائه كل نبوغ في العالم لأنه متمول ـ إذ النبوغ والدراسات العَالية والعلماء والمكتشفون والمخترعون والكتاب، هذا كله أصبح يباع ويُشترى كالسلع المعدة للبيع والشراء، تتبع المال أينما كان ـ ولإمتلاكه الميراث العلمي في الدنيا كلها، واحتفاظه بجميع المبدعات والذخائر من جميع الفروع العلمية، ابتدعها هو أو أخذها من غيره، فبلغ ذروة التكامل العلمي والفلسفي

والتكنولوجي. وحاز ثمرة كل الجهود البشرية التي بذلت في سبيل العلم إلى هذا اليوم، مع ذلك فهو قد فقد شيئاً أجبره على الخضوع والاستسلام لتلك المجتمعات، التي لا تمتلك أي نوع من الأسلحة، فأهلها حفاة، لا يمتلكون حتى آلة للدفاع عن حياتهم وحياة أسرهم، رغم أسلحة الغرب المادية والمعنوية والعسكرية.

من هما طرفا القتال والجدال في هذا العصر؟

مجموعة من القدرات العلمية والصناعية تقاتل جماعة تفقد الصنعة والعلم وإن مصير هذا القتال، بعد اختلاف عدة أشهر وسنين، سيكون لصالح أولائك الحفاة في هذه الدنيا بلا شك، لصالح أولائك الذين لا يقرأون ولا يكتبون، وستخسر تلك القدرات التي حازت الذخائر العلمية والفنية مدى الدهر، وطيلة تاريخ البشر. أيُّ شيء يقتتل مع أي شيء؟ العلم يقتتل مع «الفكر». . هذا الحافي الجائع، الذي قدِر له أن يبقى فقيراً، عرياناً، مريضاً، لكنه في الوقت نفسه تسلح بسلاح واحد هو «الفكر» و«الإيمان» و«العقيدة» له هدف واحد جعله يقاتل ذاك الإنسان الذي جمع المقدرات العلمية والصناعية والفلسفية فيتغلب عليه رغم كونه أمياً. إذاً هناك شيء آخر، غير الثروة والقدرة والعلم والفلسفة

والتكنولوجية. . الشيء الذي لو صرفنا النظر عن «وجوده» و«عدمه»، لهُزمنا أمام حفاة الدهر وإن كانوا عبيداً مظلومين، لأننا نباد وننهار من الباطن، حتى لو بلغنا ذروة التكامل في تلك القدرات المادية حيث بلغ الغرب المتمول هذا اليوم.

ومن هنا تقف المجتمعات التي تريد أن «تختار» أمام طريقين:

١ ـ أن تختار طريق العلم والرأسمالية والقدرة والصنعة

٢ ـ أن تختار طريقة فكرية وعقيدة تنشدها.

من المسلَّم أن المجتمع الذي يرتبط بهدف عال وعقيدة وإيمان، فإنه يتفوق على كل قدرة، حتى على القوة التي تسيطر على «المنظومة الشمسية». وإن مجتمعنا كمثل هذا، ستكون له حضارة أيضاً بعد عشر سنين أو خمس عشرة سنة، كما تكون له صنعة، وينتج على مستوى عالمي أيضاً. ونماذج كثيرة في الزمان الماضي وفي وقتنا الحاضر كان لها ذلك. أما إذا كان المجتمع فاقداً لنموذج يهدف إليه، فاقداً للإيمان والرعاية الشخصية والاجتماعية، وليس همه سوى الصنعة والاقتدار والرأسمالية، وما يسمى اليوم بالتقدم العلمي والصناعي (فإن وفق لنيل ما يروم ولن يوفق) فإنه سيبقى مستهلكاً وإن ظن أنه

منتجاً. وهذه هي الخديعة الكبرى التي وقعت فيها جميع البلاد المتأخرة، وخسرت ذلك الشيء الذي يهب الرقيق العجوز المحروم قدرة تزلزل أكبر قدرة عالمية. وهكذا إذا كنا أصحاب عقيدة، فإنه متى ما وفقنا أن نجتاز مرحلة الإيمان بنجاح فإننا سنكون صانعي أكبر حضارة. أما إذا لم نشعر بنقص فكرنا، أو لم تنكشف لنا قضية الإيمان والعقيدة، ولم نتضح طريقنا فنتعلمه، ولم نشعر بحاجتنا إليه، فإننا سنبقى محتاجين أرقاء للمنتجين، نعتمد على الحضارة الغربية، ونستهلك من انتاجهم.

من هنا فإن المثقف هذا اليوم في البلاد المتأخرة، أينما كان، في أميركا اللاتينية، أو في أسيا القصوى، أو في الشرق الأدنى، لا فرق في ذلك، بل كما يقول «فانون»[١]: إنَّ

(١) فرانز فانون فيلسوف ومفكِّر وثائر أُممي من جزر الآنتيل في أمريكا اللاتينية، كان طبيباً ومحللاً نفسياً، لكنه على وصف المعلِّم شريعتي؛ كان عالم اجتماع ومعلّم ثورات، وصاحب مدرسة، حارب مع الثورة الجزائرية، واستشهد هناك حيث دُفِن في الجزائر طبقاً لوصيته، ربطته بالدكتور شريعتي علاقة نضالية وثيقة، وله رسائل معه، وترجم له شريعتي عن الفرنسية مقتطفات من كتابه «معذّبوا الأرض» أو «المعذبون في الأرض» حسب الترجمة، وقدَّم له على كتابه هذا، الوجودي الفرنسي جان بون سارتر، الذي كان يشاركهم في الهموم الأممية آنذاك، مع اختلافه معهما أيديولوجياً.

المجتمعات المتأخرة لها مصير متشابه، وحاجة واحدة، وانتخاب واحد، لأنها تواجه قدرة متشابهة في زمان واحد ومشترك. إما أن يختار «الفكر» أولاً، أو الحضارة من غير «الفكر»، وأعني «بالحضارة» الشيء الذي يخرجه المتحضرون لنا. وقد كشفت لنا التجارب طيلة الثلاثين أو العشرين سنة الأخيرة، وحتى في الأربعين أو الخمسين سنة الماضية؛ أن المجتمعات التي بدأت من نقطة عقائدية، وتحركت بعد تحقق وعيها الفردي والاجتماعي، قد وقفت اليوم في صف القدرات التي تصنع الحضارة العالمية. لكن المجتمعات التي اقتدت بالحضارة الغربية بدون وعي اجتماعي، أو شعور إنساني بالوعي الفردي، وبدون عقيدة بل بمجرد نهضة كاذبة، قد ظلت مسخرة للحضارة الغربية، مستهلكة على الدوام، خاضعة للذل والعبودية تحت سيطرة الغرب[١].

يمكنكم أنتم أن تجدوا أمثالاً ونماذجا لذلك!

---

(١) يطرح شريعتي هنا عين الجدلية التي طرحها مالك بن نبي بين (عالم الأفكار وعالم الأشياء) إذ العالم الأول يمكن أن يجلب الثاني ويصنعه، بينما لا يمكن العكس. أنظر أمثلته في ذلك ـ عن ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية وكيف عاد لها عالم الأشياء بعد فنائه، ومقارنته مع دول الخليج بعد نصف قرن من عالم الأشياء... أنظر؛ مثلاً، كتابه: (فكرة كومنولث إسلامي)، القاهرة، مكتبة عمار، ط٢، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م، ص٧٥ ـ ٧٦.

ما أقرب الإنسان وهو بعيده.

إن الذي أُريد أن أقوله هو: إن الدين(١) الذي هو فوق العلم، يعتبر الإنسان ذاتاً أرقى وأشرف من جميع المظاهر الطبيعية. هذا هو اعتقاد الدين واعتقاد أصحاب النزعة

---

(١) أردت بالدين غير الدين المتوارث حسب السنن والعادات، لأن الأديان الوراثية كلها متشابهة، فالشيء الذي يتخذ وراثة وسنة واعتياداً من غير علم وبصيرة كيف كان، ومهما كان، هو مردود لا فرق بين أن يكون مذهب الشيعة أو السنة أو الدين البوذي أو المسيحي أو الإسلامي. إذ لا درجات في الجهل. لذا فإن البحث يدور على «الدين الارقى من العلم»، لا الدين الذي لقن تلقيناً واستلمه الخلف عن السلف كمجموعة عادات وسنن تقليدية مكررة. أن الجيل الواعي يرفض هذه السنن والخصائص الموروثة اللاعقلانية ولا يستمع لها، وإن لم يكن قد القاها في المهملات بعد، فإنه سيلقيها غداً. هذا شيء محتوم.

إني أتطلع وأفكر في خط السير الذي تسير عليه هذه البادرة. مثلاً يتمرد الجيل الوراثي في مجتمعنا على السنن اللاعقلانية التي حملت إليه أولاً فيرفضها كلها، ثم يصل إلى مرحلة فارغة تماماً، هي الوجل والاضطراب والبحث والريبة والحاجة إلى كشف الطريق، وفي النهاية يجده. إنَّ اكتشاف الدين بعد رفض سننه الوراثية المتحجرة، هو الشيء الذي يعرض اليوم على مستوى إيران، وليس على مستوى مجتمعاتنا الدينية فحسب، بل على مستوى المثقفين في العالم كله. وعلى مستوى ضمير هذا الجيل من الشباب الواعد المتمرد في عصرنا الحاضر.

إن الدين الذي نبغيه هو الدين الذي يتجاوز الفلسفة والعلم والصنعة هو دين المعرفة والتنبه، لا دين مجموعة من السنن الوراثية المنصرمة، التي لا يعرف أيعود تاريخها إلى ما قبل الفي سنة؟ أم إلى زمان ناصر الدين شاه؟ وإنها أصبحت مقدسة لقدمها. (شريعتي).

الوجودية «les existentialismes»[١] أيضاً. فسارتر نفسه الذي لم يؤمن بالله يعتبر الإنسان ذاتاً منفصلة عن جميع كائنات الطبيعة، وقطع حبل اتصاله بالسماء، ووكل أمره إليه فهو يصنع مصيره ويصنع نفسه، وهو رب نفسه مسلط على الطبيعة ومسخر لقواها، خلافاً لسائر الكائنات المخلوقة من قبل الطبيعة والمستسلمة لها كان يعتقد ذلك. وهنا نرى أن الدين و«les existentialismes» وأصحاب النزعة الإنسانية «les humanistes»[٢]

---

(١) الممثلان الكبيران للوجودية هما مارتن هيدجر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) وجان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠). وعمليهما الرئيسيين في هذا الاتجاه هما «الكينونة والزمن» لهيدغر، و«الكينونة والعدم» (١٩٤٣) لسارتر، وتختلف مبانيها وجذورها ـ إلى الإغريق ـ إلا إن السمات الأساسية لها، أي أنه لا توجد قاعدة أخلاقية موضوعية لتوجيه الفرد، والذات تكشف ما هي عليه من خلال الصدفة والأحداث الطارئة، ومهمة الفيلسوف هي التعبير عن الصورة التي يبدو لنا العالم عليها. وقد أوضحت وجوه أساسية للفكر الوجودي من خلال تحليل إرادة كمعنى العدم والخوف والغضب ووعي الموت، وتأطر بجهات من فينوميلوجية (ظاهريات) هوسرل، ليرتكز الاتجاه الوجودي على الوجود الانطيكي (الواقعي الحياتي)، لا الأنطولوجي (الميتافيزيقي العام).

(٢) الإنسانية (humanism) إتجاه يرى في الإنسان أرفع القيم ويدافع عن حريته وتطوره من كافة الجوانب، ظهر في القرون (١٤ ـ ١٦) في عصر النهضة (دانتي، ف. بيكون، كوبرنيك، شكسبير، وغيرهم). كانت من أول عهدها تمهيداً فكرياً للثورات، لذا وجُهت ضد الفلسفة اللاهوتية للقرون الوسطى والأخلاق الاقطاعية. ومن هنا جاءت مطالبها في الحرية، وتحرير الإنسان من الضطهاد واللامساواة. يعدّ أبرز ممثليها هم فلاسفة الأنوار، سيما مع روسو، وفولتير وهيجو.

يلتقون في نقطة تعترف بأصالة الإنسان، ورجحان ذاته على جميع مظاهر الطبيعة. أي كما رفع الإسلام قدره وأجلّه إلى حد تقاصرت أن ترفعه إليه المدارس ذات النزعة الإنسانية «humanistes» المصرة على رفعه وإجلاله، حيث جعله الإسلام صفوة الله، وخليفته بين الكائنات، وسخر له كل قوى الطبيعة، وأمر ملائكته بالسجود أمامه والتسليم له بالعبودية كذلك فضله على العالم. أما عمله كعمل الله في العالم تماماً، وبإمكانه أن يشابهه في العمل في عالم المادة وعالم الطبيعة، ولكن أي عمل؟ أن يكون خالقاً عارفاً مدبراً مختاراً مطلق القيد من كل جبر.

هذه الصفات الخاصة بالله في العالم نسبت للإنسان في الإسلام بدرجات أدنى؛ عارف ذو إرادة، مختار، خالق، مغيِّر، متمرِّد، ومسخِّر لكُلِّ أنظمة الطبيعة ومغيِّر لمصيره التاريخي، ولمجتمعه، وحتى لذاته.

في كل يوم

هذا الموجود ذو القيم الإلهية يسعى خلف رزقه اليومي. هذا الرزق القاتل للإنسان الحي، هو الهوة التي تغور فيها أعز قيم الإنسان الإلهية كل يوم.

في الحياة اليومية، تلك الحياة الدورية، التي فرضت

وجودها على كل الحيوانات من ذوات الخلية الواحدة والجراثيم، إلى الحيوانات الكبيرة والنباتات توقع الإنسان في ذاك الدوران الأحمق. . الدوران الذي يأكل فيه الإنسان فينام، فيستيقظ، فيكدح ليأكل، ثم يأكل ليكدح فيأكل من أجل أن يعمل، يعمل لوقت فراغه، فراغ لعمل إنتاج واستهلاك الإنتاج، أينما تنظر تراه دوران. كـ«الحمار» تماماً يسير صباحاً، فيسير بجهد وتعب، يسير ويسير فيرى نفسه أول الليل مكانه أول الصبح. . دوران، فدوران، فدوران. هذه الدائرة الشنعاء، هي مسير الإنسان وتاريخه في الوقت الحاضر والماضي، متحضراً كان أم غير متحضر، شرقياً كان أم غربياً. في هذا الدوران الباطل تطرأ على الإنسان مشاعر خاصة: فاقات، عقد، ضغائن، أهواء، أحساد، وآلام خاصة، إلى حد تعجز الإنسان النبيه. قد تشاهدون أحياناً أحداً يشكو ويتعب ويضج ويمهِّد، ليعرب عن ألم، هو مضحك جداً. ينبغي أن يضحك من بلاهته! لو أعددنا قائمة لمجموعة من الأشياء التي نتمناها في حياتنا اليومية وننعم بها، أو نأمل الحصول عليها، أو نغبط الأخرين لوجودها لديهم، ونسعى للحصول عليها، فإن لاحظناها بوعي وانتباه لاستنكرنا أنفسنا، واستقبحنا وجودنا، واستعبنا حياتنا. فحين يدرك الإنسان هذه الأشياء تدريجاً ويدرك القضايا الخارجة عن إطار نفسه وبيته يشعر براحة، مثلا، إذا

كان في بيته شيء لم يكن له مثيل في بيوت الأخرين في المحلَّة، أو يبتاع قطعة قماش كانت وحيدة في نوعها عند البزاز وقد ساعدته الظروف على شرائها، ولو كان قد تأخر في حضوره عند البزاز، لخرجت من يديه، وابتاعها شخص آخر، فيلبسها في المحافل بدل أن يلبسها هو، وعندئذ واويلاه ما أبأسه وما أشقاه؟!

ثم ما أكثر اللذات والحسرات والتنكرات والمؤامرات، وبعدها التمهيدات، ثم التضحية بكل شيء لا يُقدَّر ثمنه عند الإنسان، من أجل الحصول على ابخس الأشياء! ثم نرى هذا الإنسان الذي يختال فخراً، ويعلو رأسه إلى عنان السماء ليصل إلى الله. . نراه يتقبل الذل إلى حد يأباه الكلب، من أجل رتبة أو درجة دنيَّة إلى أبعد الحدود ضمن إطار القيم! ومن هنا تعرف قابلية الإنسان في الصلافة والشقاء، إنها ما وراء كل الموجودات.

قد ترون أن إنساناً يكاد أن يصاب بنوبة تقضي على حياته من شدة فرحه، يجول في داره ويرقص لنفسه لماذا؟ لأنه لمح سيادة الرئيس في الدائرة صباحاً، عندما كان يخطو على السلم، فرأى في نظرته إليه شيئاً من الرضى. . نصف بسمه ظهرت على شفتي الرئيس، كما تظهر على شفتي صاحب الكلب حينما يقدِّم إلى كلبه اللذائذ! . . . لو أعددنا قائمة من

أسماء الأشياء التي نطلق عليها إسم اللذة، الأشياء التي ما زالت تجول في أذهاننا، ونسعى للحصول عليها، سواء كانت: ألبسة، سيارة، داراً، مقاماً، درجة دراسية أو صديقاً، لرأينا أي غال ونفيس نضحي به من أجلها.. نضحي بالزمان والإنسان، بالذكاء والنباهة، بالقابلية والفخر الإلهي للإنسان، بإمكانية التمرد، بقابلية الانتخاب والاختيار الحر، بقابلية قوة الرفض، بقوة البناء والتشييد، بقوة التغيير وتبديل المصير، بقوة الرفض لكل ما حملنا[1] واستبداله بما نريد، نفدي كل هذه الأمور بدون أن نشعر بها، وبدون أن نملك لحظة من الزمان نتأمل فيها. وهكذا نجد الإنسان في حياته اليومية متجهاً إلى خارجه دائماً، ومقبلاً على ما يوفر له لذائذه مائلاً نحو شهواته. ونجد «أنا»[2] تلك «الأنا» التي هي من الله، تهبط من العرش إلى حضيض الأرض، فتنغمس كالدودة في الماء المتعفن بالقذارات وتهش للجيفة.

ثم تتقطع «الأنا» ذات الوجود المتصل قطعةً قطعة، وتقع

---

(١) أي ما حملناه عن ظهور تاريخنا، بنزعة الإجترار والتكرار لأُطُر التراث.. في النزعة الآبائية والاستصحابية.

(٢) هنا (الأنا) بالتأكيد ليست ضمير المتكلم لشريعتي، وإنما إشارة إلى الذات في فلسفة وجودها الإنساني إضافة إلى تعبيرها عن نسق الـ«نحن» ومسار أفرادها ضمن وجهة الصراع التي تشكِّل فلسفة التاريخ.

كل قطعة منها في مصيدة شهوة قذرة وهوى أجوف وأُمنية سخيفة!

والمحصّلة هي: التضحية بأعز الأشياء من أجل الحصول على أسخف الأشياء وأقذرها!

هزّة[١]

لا أُريد أن أنصح أخلاقياً، فالإنسان يمضي ليصير إلى الفناء. وتزداد قيمه الإنسانية دماراً بمرور الأيام. إن أكبر قيم الإنسان هي تلك التي يبدأ منها «بالرفض» و«عدم التسليم» اللذين يتلخصان بكلمة «لا»، ومنها بدأ آدم أبو البشر. أُمِرَ أن لا يأكل من تلك الثمرة، لكنه أكل، فصار بعدئذ بشراً وهبط إلى الأرض، وإلا لكان مَلَكاً لا ميزة له، ولصار غيره آدم ولفُرِضَ عليه أن يسجد أمامه، لكنه تمرد فصار آدم. وأول ما يبدأ آدم بهدمه في حياته اليومية فيضحي به هو «التمرد».

(١) يعبّر عنها شريعتي غالباً بـ«اللطمة» القيمية، كمفهوم أَخذَ مكانَةَ رَقَتْ للاصطلاح ـ ولو بألفاظ مرادفة ـ في علم النفس والاجتماع وفلسفة التاريخ، سيما مع اللطمات التاريخية للشعوب التي توجّه الدورات التاريخية، تلك اللطمة التي يجدها شريعتي تأخذ بالفرد والجماعة إلى منعطف ومسار آخر يتغيَّر على أساسها مصير الإنسان (الفرد والأُمة)، ويضرب شريعتي أمثلة تاريخية لذلك في الصفحات التالية، وباقي كتاباته، والتاريخ مليء بذلك، ما لا يناسب ذكره في حدود الهامش.

التمرد! هذا التمرد الذي جعله مشابهاً لربه في الكون لماذا؟ قد يكون أحياناً من أجل دين وقّع سفتجات[١] للوفاء به مدة سنتين أو ثلاث أو أربع، فلا يمكنه الإنكار بعدها مهما بلغ به الأمر، ولا يسعه إلا أن يقول: سمعاً وطاعة عند المطالبة لأنه دينه موزع على عدد السفتجات، وحسب راتبه ودخله وإمكانياته. ومن هنا نرى أن صفته الإلهية تذهب ضحية من أجل دار أو سيارة. هذا الإنسان لا يدري أي شيء خسر، وأي شيء نال بدل الذي خسره. ولا يدري بأي شيء يتلذذ، وكم هو قدر لذته بنعمة السيارة التي ضحى من أجلها بعدم استسلامه، وبقابلية أُلوهيته، وكونه خليفة الله في أرضه، حتى يساوي لذة تمرده ورفضه.

لا شك أن من أدرك لذة التمرد والرفض والاخلاقية والنباهة، لن يبدلها بأي شيء، ولن يبيعها بأي ثمن، ولكن ماذا حدث حتى بدلنا ذلك بسهولة؟ المسألة هو أنَّه لا نباهة لنا، فنحن لا نستقيم إلا أن علتنا يد قوية، أو سوط قاس، يظل فوقنا مدى حياتنا. عندما نكون منشغلين بشدة في الليل والنهار، وحتى في نومنا، وفي غفلة شغلنا الإداري والعائلي،

---

(١) السفتجة: هي أن تعطي مالاً لرجلٍ فيعطيك خطاً يمكنك من استرداد مالك من عميل له في مكان آخر(فارسية).

ترفعنا تلك اليد، فتهزنا من هذا الكرش الأحمق الذي ما زال يدور بنا، ولم نشعر بما مضى من الزمن، وما فات من العمر، وكم بقي منه، وكم سوَّفنا من الفرص، وكم ضيعنا من النعم والقيم والكمالات لانشغالنا بغيرها؟ وتخرجنا تلك اليد من بين القذارات وتجففنا تحت أشعة الشمس، ثم تضربنا على الجدار بشدة وتقول لنا: أنت! أنت!

العبث

هذا «إبراهيم الأدهم» رجل لا خير فيه ولا جدوى، ذو ثروة عظيمة ومال طائل، عاطل لا أُنس ولا عمل له غير الصيد، غيره يكدح وهو يأكل. ماذا يعمل؟ يذهب للصيد، اعتاد على الصيد حتى أنس به، وصار شغله الوحيد، يفرح إذا اصطاد من الوحش أماً أو أباً أو ابناً، فيمتلأ سروراً وقهقهة، لا حاجة له بلحمه أو جلده سوى أنه يجد لذة بذلك. إنه لداء قذر أن ينصرف إنسان بتلك العظمة[1] كلها إلى عمل كمثل هذا لتحقيق لهوه. هذه هي فلسفة حياته، أنها اسطورة، لكنها أصدق من الواقع.

بينما كان يطارد صيداً ذات يوم، إذ وقف شخص في

(١) كمخلوق بلغ حدّ سجود الملائكة له، كما يرى في مفاصل أُخرى.

وجه فرسه، فوقف الفرس في مكانه، ولم يتحرك. وإذا بصوت هاتف كأنه الرعد يشق مسامعه: «يا إبراهيم ألهذا خلقك الله؟» أحجم إبراهيم، «انتبه»، توقد انتباهه! أنت! أنت! . . .

نحن لا «أنا» غير منتبهين «أنا»! لسنا واعين لأمور ننسبها إلى أنفسنا كذباً، وفي نفس الوقت «نحن» محرومون أكثر من أي شخص. أنت! كأنه ولأول مرة تعرف على شخص اطلع على وجود عظيم. وقف. فرجع، لكنه رجع «إبراهيم الأدهم». نعم إبراهيم الأدهم الذي يشعر الإنسان أمام رفيع درجته وعلو مقامه بالصغر والحقارة!

المتنعم بالدلّ[1]

هكذا كان! كان أميراً يعيش في قفص أُعِدَّ له من الذهب، وقد صبّ إليه كل شيء في حظيرته، كل شيء هُيّيء له. استحدثوا له غابة ووضعوا حولها صيداً ليكون جاهزاً له متى متى! وفي مكان آخر مسابح ذات الوان مختلفة، وفي كل مسبح شجرة من النيلوفر بلون خاص. حدائق قاعات ملاهي راقصات . . . خرج يوماً من القفص فرأى ميتاً.

(١) الدلّ: السكينة، الدلال.

ـ ما هذا؟

ـ هذا مصير الإنسان.

ـ وأنا أيضاً؟

ـ نعم!

ـ ما هو الموت؟

ـ الموت حالة تصيب كلّ واحد في نهاية عمره.

ـ وبعدها كيف يكون؟

ـ ثم يتبدل الإنسان إلى جيفة كل من كان وأينما كان.

وفي الغد يرى مريضاً:

ـ من هذا؟

ـ مريض.

ـ ما هو المريض؟

ـ المرض عرض يصيب الإنسان قبل موته قليلاً أم كثيراً شديداً أم ضعيفاً.

ـ أنا أيضاً يصيبني؟

ـ نعم! المرض لا يهتم بحصار ولا جدار ولا حاجب.

وبعد غد:

ـ من هذا؟ من هذا المنحنية قامته؟

ـ هذا شيخ عجوز.

ـ ما هو العجز والهرم؟

ـ هو مصير محتوم لكل انسان.

ـ وحتى لي أنا أيضاً؟

ـ نعم! حتى أنت.

ويوم آخر:

ـ هذا سائل مسكين.

ـ ما هو السائل المسكين؟

ـ هو الإنسان ذو الفاقة الذي لا يملك إلا حفنة الشحاذة ليكون طفيليا عند هذا وذاك لشبع بطنه(١).

تُنبّه هذه الصدمات الأربع ذلك الرجل الذي يسرح

---

(١) هذه الحالات والاستفهامات وما استدعت من إجابات، يُجريها شريعتي توظيفاً لتأسيسه السالف في مسألة «اللطمة أو الهزّة»، حيث مثلّث ـ الاستفهامات ـ مفاصلَ لطمةٍ من تلك اللطمات والهزّات التي تُفضي إلى وعي الوجود الإنساني وبالتالي تغيير المصير.

ويمرح في جنة. منتبه يعيش في هدوء محض ورفاهية محضة وفي شبع وتمتع محض من كل شيء وفي جهل محض.. تنبهه هذه الصدمات الأربع التي لا تعرف أميراً ولا «بودا» ولا... فيدرك فجأة في أي راحة قذرة، وأي لذائذ مجوَّفة كان يعيش! وأي شيء وأي ثروات مجهولة له ظلت منسية تحت غوغاء تلك اللذات الكاذبة، وعندها يتمرد. إذ «الشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان وحده أن يعمله، هو أن يفر «منها» جميعاً كالمرميس[1] يرحل بلا تشويش وبدون حسرة للعودة، أو تفكير في عطش أو حاجة للحياة في قصر بنارس! حرّا! حرّاً!»[2]. كرأس شجر الخيزران طليقاً من قيد الأعوجاج. أمَّا أنت الذي في أسر بيتك وثروتك وسعادتك كشجرة مليئة بالثمار تدلت أغصانها إلى الأرض، وأوشكت على الانكسار. بينما رؤوس أغصان شجر السرو الممتدة نحو الشمس لا تخضع لثقل! فهي حرة من كل اعوجاج كرؤوس شجر الخيزران، كالنيلوفر بعيداً عن درن المياه! يتفتح في الماء لكنه يخرج منه، يخرج من الطين فيتفتح على الماء، ليصير كله فما واحداً مقابلاً لاشعة الشمس، فيجف بعيداً عن

---

(١) المرميس: الكركدن، أي حيوان وحيد القرن.

(٢) هذه نص عبارات بودا نفسه.

بلل المياه وإن كان نموه فيه. وأنت! أنت! يا من تجلى الله فيك، أنت في دوامة خلقت للحيوانات والنباتات، و«أنت» الذي خلقت منها كلها، أنت يا من خاصتك الـ«لا» أنت! كالنيلوفر تحت أشعة الشمس تشع داخل مجهول لا تعلمه، فاجعل وجودك كله فما واحداً مرتضعاً، لتنبذ كل المظاهر والجدالات والاهواء والجاذبيات التي مزقت حياتنا اليومية، ضحية لنا ولشهواتنا واعدائنا واحقادنا وحسراتنا اليومية. تلك الأمور السخيفة المنحطة المحقرة للإنسان، التي جعلته لعبة جسدت فيه خصائص حيوانات، كالفأر والذئب والخنزير، لأنه نسي سيادته وعزته والوهيته[1] وخلافته لله في أرضه. نسى قابليته وقيمه التي لم تُعطَ لغيره، واستهلك نفسه وبذلها وضحّى بها وعبّدها لغيره، وتملّق بسهولة ولم يشعر أنه

(١) يريد شريعتي بـ«ألوهية الإنسان» أينما ذكرها؛ في أنّه المخلوق الوحيد الذي له القدرة على امتلاك الصفات الإلهية، مع الفارق في أنَّ صفات الله مطلقة، بينما تبقى عند الإنسان محدودة. كما أن شريعتي أقام مفهوم «الصيرورة» في التاريخ، على التحرك باتجاه تلك الصفات والتشبه بها، وفي هذا فسَّر الأحاديث الشريفة التي تشير إلى التشبُّه بأخلاق الله وصفاته. وهو عين ما طرحه الشهيد محمد باقر الصدر في فلسفة التاريخ، حين أقام أيضاً تلك الصيرورة على «الكدح» نحو تلك الصفات وفي هذا أيضاً كان تفسيره للآية الكريمة ﴿إنك لكادح إلى ربك كدحا﴾. أنظر كتابه؛ المدرسة القرآنية. حيث فصَّل ذلك تأسيساً ضمن بحث السنن التاريخية.

ضحى بكل انسانيته بالثناء الكاذب على الغير، من أجل الحصول على بغيته. إنه خسران مهما ربح! لأن الإنسان إذا قتل شخصاً فإنه يبقى إنساناً وإن كان قاتلاً، بينما الذي يطأطىء رأسه أمام غيره، أو يتملق له لا يبقى إنساناً! لكنه لا يشعر. يعدّ السرقة والقتل أمراً قبيحاً بينما لا يستقبح التملُّق. لأنه يخسر شيئاً في تعبده وخضوعه للغير لا يعرف ثمنه.

أمثال وحكم

كان أحد المدرسين يعظني موعظة مليئة بسوء الأدب، لكنها بليغة جداً. كان يعظ ويقول: إنه لا ينبغي على الإنسان أن يكون شديداً على الأخرين بل ينبغي عليه أن يكون ذكياً محافظاً على منافعه، وأن لا يسوف الفرص. . إنه لا مشكلة في أن يقول الإنسان: إن هذه اللحية ـ والتي هي من علائم شرف الرجل ووقاره ـ ليست ذات أهمية، قد تقتضي المنافع والظروف أحياناً أن يضعها الإنسان في ما تحت الحمار من أجل المنافع! ثم يخرجها، ويغسلها بالشامبو والصابون ويعطرها، فتكون لحية في محلها ولا شيء عليها! ولم ينقص منها شيء! بل تكون قد قضت حاجته! هذه هي فلسفة حياتنا بينت بوقاحة، لكن أعمالنا أوقح منها.

ـ ٢ ـ

الوعي.. بين النباهة الفردية والاجتماعية

إن الشيء الذي يدعوني دائماً من خارج هذه المشاغل التي تجعلني ضحية لها، ويدفعني إلى نفسي هو (النباهة الفردية) أو النباهة النفسية. . تدفعني أمام المرآة كل مرة لأرى «نفسي». . أجل لا يوجد أحد يرى صورته الحقيقية نصب عينيه، حتى أُولئك الذين يقفون أمام المرآة كل يوم ثلاث أو أربع ساعات، ما اتفق أن رأوا أنفسهم!.

المعرفة النفسية أو الدراية أو النباهة الموجودة عند الفرد بالنسبة إلى نفسه، هي فوق معرفة الفلسفة والعلم والصنعة، لأن الأخيرة معرفة، وليست «معرفة نفسية»[١] أي ليست الشيء

---

(١) يفرِّق شريعتي بين المعرفة التي تُورِثُها الفلسفة والعلم من جهة، وبين ما يسميها «المعرفة النفسية» أو «النباهة» والتي تترشَّح عن «الوعي». . وعي الإنسان بوجوده (الفردي والجماعي والتاريخي) أو بإطار أشمل ما يسميه بـ«الوعي الوجودي»، وعن ذلك التفريق انبثق اصطلاح الوعاية الفردية والاجتماعية أو النباهة الفردية والاجتماعية.

الذي يريني نفسي، يستخرجني فيعرِّفني ذاتي، الشيءَ الذي يلفت انتباهي إلى قدري وقيمتي. فقيمة كل أحد بقدر ايمانه بنفسه. كم حقرونا! انظروا إلى أنظمتنا التربوية والاجتماعية! لقد حقرونا إلى حد حيث أصبحنا لا نؤمن بقابليات قدراتنا.. أي أُنكِرنَا ذلك الإنكار الذي تأباه حتى فراخ الحيوانات، فهي تأبى أن ترى أنفسها عاجزة إلى هذا الحد! نحن عاجزون عن الانتقاد، عن الاستفسار، وحتى عن الكلام! أصبحنا وملؤنا عدم الصلاحية، لا نجرأ أن نتصور أننا قادرون على أي عمل صغير! هكذا وإلى هذا الحد نحن حقراء غير مؤمنين بانفسنا!

ولا شك أنَّ الجيل الذي يستحقر نفسه بنفسه يكون حقيراً أيضاً. فسياسة الاستعباد والاسترقاق تقتضي التحقير[١] أولاً.. أي يُحقَّر الذي يراد استرقاقه، حتى يظن أنه من طبقة دنية واسرة منحطة، ثم يتقبل الذلة بكامل الرحب، ويلجأ للعبودية والاسترقاق.

---

(١) تعتبر هذه المقولة ذات منحى تأسيسي في علم الاجتماع السياسي، بما تلقيه من إضاءات في مسائل الاستعمار والاستبداد والاستغلال، وبالتالي المقولة الأشمل «الاستحمار»، لذا جاءت هذه المقولة «التحقير» كمقدمة في هذه المحطة من هذا الكتاب، المنصب على مسألة الاستحمار. وسنرى كيف تستخدم كأبرز آلية لسلب الشخصية عند الاستكبار العالمي.

أصغر فأصغر

أي شيء عمل بنا الغرب نحن المسلمون، نحن الشرقيون؟ استحقروا ديننا ولغتنا وأدبنا وفكرنا وماضينا وتاريخنا وأصلنا[١]. وكل شيء لنا استصغروه، إلى حد حتى أخذنا نحن نستهزىء بأنفسنا. أما هم فقد فضلوا أنفسهم واعزوها، ورفعوها إلى حد حتى صدقنا أن جهودنا جميعها، وآمالنا ومساعينا ليست إلا تقرباً وامتثالاً ومماثلة وطاعة للافرنج كي نستطيع تقليدهم في الأزياء والأطوار والحركات والكلام والمناسبات، وبلغ بنا الأمر حتى أن المثقفين منا يفخرون أنهم نسوا لغتهم الفارسية!

ما هذه السخافة؟ هكذا يفخر الإنسان في سخافته وفقدان شعوره؟ أنه لأمر عجيب!.. لا يفخر فقط أنه تعلم اللغة الافرنجية، بل يفخر أنه نسي لغته الأصلية! ما أشبهه بالطفل الذي تهينه أمه وتضربه، فيلجأ إليها ليأمن سخطها. فالعنصر

---

(١) إلى ذلك يحيل شريعتي سبب انبثاق نزعة التغرُّب في الشرق، سيما في كتابه (العودة إلى الذات) و(المثقف ومسؤوليته في المجتمع)، إذ سلب الشخصية مقدمة للسيطرة عليها، في وادي الاستعمار، إضافة إلى ما تفضيه من الاحساس بالدونية المحتِّمة للارتماء في أحضان حضارات وثقافات أُخرى، هرباً من دونيته الموجِّهة، لذا كانت ظاهرة التغرُّب النخبوي بارزة جداً في دول العالم الثالث على هذا الأساس.

الأفضل، والشعب الأفضل، وحتى الإنسان الأفضل يعمل على تحقير قوم أو شعب أو إنسان آخر ليسيطر عليه ويستعمره. . يعمل على تحقير دينه وإيمانه، وأدبه وفكره، وكبار رجاله وماضيه، وكل ما لديه فيفر المُهان من تلك الأمور التي سببت إهانته والاستخفاف به، ويلجأ إلى ذاك المصدر الذي شنع عليه واعابه، ويخرج نفسه على شاكلته لئلاً يقع في مسير تَهْمِه وتشنيعه. ومن هنا نرى أن بعض الأشياء يتخذها الافرنجيون بضائع استهلاكية، بينما لا نعتبرها نحن استهلاكية، بل شيئا نموذجياً! . ١٥٪ من مجموع الأوروبيين يأنسون بالتلحين الكلاسيكي أمام الإيرانيين، فكلهم يحفلون بجميع أنواع التلحين!

من الذي يجرأ أنْ لا يأنس ذلك؟ لماذا؟ لأنه نموذج الطبع الأفضل والذوق المفضل، ولا يجرأ أحد أن لا يستحسنه. فللافرنجي أن يُعرب عن رأيه بسهولة، ويقول: أقطع صوت الراديو «مثلاً»، إنه هذر يسبب الصداع. لكن الشرقي مرغم على استماع ما يريده الغربي إلى آخره. لأي شيء؟ لأنه نموذج من المثل الأعلى! والسبب في هذا كله؛ أن الإيمان بالنفس قد يسلب من الإنسان مقومات مختلفة، ولكنَّه يوفر له شيئاً واحداً ـ مع ذلك هو الأهم من كل تلك المقومات المسلوبة ـ هو «الوعي النفسي». وهو أن أعرف في الدرجة

الأولى إلى أي عرق وأصل انتسب، وبأية أمة ارتبط، وإلى أي تاريخ، وأي حضارة، وأي فترة زمنية، وأي أدب أنتمي، وإلى أي مجد ونبوغ وقيم أمتّ. هذه عودة إلى «الوعي النفسي» وفوق هذا «الوعي الوجودي»، الوعي الذي يجعلني أشعر بنفسي كمظهر إنسان كموجود إنساني في ذروة الوهيته. أجد نفسي بتلك المظاهر فاعرفها تماماً وآنس بها، وعندها لا أتخلى عنها بأي ثمن. إذ لا يمكن المساومة على جزء من لحظات وجودي إن عرفت من «أنا»! هذه الـ«أنا» التي تباع بسهولة. تغدو مع كل أحد عظيمة بعظمة كل الكائنات، إن هي اكتشفت نفسها قليلاً، وبلغت «وعيها» النفسي، نعم وعيها النفسي!

مجتمع النباهة

المسألة الثانية التي أُسميها «ثقافة»، هي الوعي السياسي بالمعنى الافلاطوني للسياسة، لا بمعناها الصحفي اليومي(١)،

---

(١) في ضمن الثوابت التي نسخها شريعتي في الفكر الإنساني هي الدلالة الممنوحة لأثر افلاطون في كلمته؛ الإنسان حيوان سياسي، حيث دُئِبَ على أن دلالتها تشير إلى أنه اجتماعي بالطبع بينما رأى شريعتي، ان المقولة في دلالتها الحقيقية واعية جدّاً لفلسفة الإنسان، إذ فارق كبير بين أن تميِّز الإنسان في أنه ذا تركيبٍ محورُهُ أنه يعيش جماعات، جماعات، وبين؛ أنه الوحيد بين المخلوقات القادر على أن يسوس ما يحيطه من علاقات ضمن ما=

بل بالمعنى الأفلاطوني للبحث المنتخب الاختياري. أي شعور الفرد بمرحلة المصير التاريخي والاجتماعي للمجتمع، وعلاقته بالمجتمع والمقدرات الراهنة بالنسبة إليه وإلى مجتمعه، وعلاقته المتقابلة بابناء شعبه وأمته، والشعور بانضمامه وارتباطه بالمجتمع، وشعوره بمسؤوليته كرائد وقائد في الطليعة، من أجل الهداية والقيادة والتحرير والحركة الشاملة تجاه شعبه وامته. الأمر الذي يجعل هذا بمثابة مسؤولية ثانية للإنسان. فثقافة الإنسان، وثباته على ما من شأنه أن يستلب منه، شيء واحد.

مراوغه

إذاً النباهة نباهتان «نباهة نفسية أو فردية» و«نباهة اجتماعية»، وهي التي يأتي بيانها الأن. نقف الآن على نقطة أساسية هي وضوح الأمر وانكشافه: فعدوّي «أنا» كإنسان، وعدونا «نحن» كمجتمع إنساني أو عقائدي أو شعبي، أو كطبقة لا فرق، كان العدو شخصاً أم أداة، فهو يسلب منا

= يتميّز به من (وعي)، أي بما يتلخّص بعنوان «النباهة»، لذا آلت النباهة في تعريف شريعتي إلى أنها: الوعي السياسي، لكن بالمعنى الأفلاطوني الموضّح وليس بالمعنى السياسي المتداول، ولا بالمعنى الموروث في تاريخ الفكر.

«الوعاية الأولى» و«الوعاية الثانية»، وإن لم يُبدلنا بهما جهلاً أو فقراً أو ذُلاً[١]، بل حتى لو أبدلنا بهما معرفة! على كلٍّ فهو عدو!.. هذا العدو حتى إذا أعطانا معرفة فلسفية أو فنية أو علمية، واستلب منا عوضاً عنها «النباهة النفسية» وأيضاً «النباهة الاجتماعية»، تلك النباهة التي اختص بها الأنبياء في التاريخ[٢]، أو عمل على تضعيفها فينا، فهو عدونا «نحن» وعدوي «أنا». هذا هو الأساس المركزي في وجودنا التاريخي إنْ قبلناه، فسائر القضايا تكون واضحة، وسيفيد في تخمين ومقايسة كل الأمور التي تحيط بنا.

إن العدو اليوم ليس كالسابق، فهو لا يأتينا بلامة حربه كالخوذة والسيف، فيقتل ويذبح ثم يعود من حيث جاء،

(١) بل قد يبدو لنا شيئاً مهمّاً في نظرتنا، لكن الأساس الذي يمثل محور وجودنا قد سلب وهي النباهتين، وحينها لا يكون لما مُنحنا إياه أثراً، كونه لا يمس مسار وجودنا وماهيته.

(٢) ما كان الأنبياء فلاسفة ولا فنيين ولا أُدباء ولا شعراء ولا علماء جمال ولا فنانيين بل كانوا أُميين من عوام الناس، لكن لديهم نباهة ووعي بالنسبة للزمان. ومن أجل هذا شرّعوا مسيراً للتاريخ وحرّكوه فصنعوا حضارة، وغيروا مصير مجتمعهم أكثر من أي حكيم، واحسن من أي ذي فكر وأي عالم، واكثر من أي كاتب وأديب. هذه المعرفة النبوية يمكن أن تكون حتى للفرد الأمي، بينما يمكن أن يكون الإنسان عالماً بالمعقول والمنقول، لديه العلوم الحديثة والقديمة لكنه بعيد عن تلك المعرفة النبوية الاجتماعية. (شريعتي).

فنعرفه بسرعة أنه عدو. لا ليس كما تظنون، إنه يظهر من اكمام ثيابنا، نعم يظهر من كم الثوب! لا كما مضى يأتي حاملاً سوطه، ويسوق الناس إلى صناديق الاقتراع لأخذ الرأي. كما هو مع الغرب؟! فإن ذلك السوط أصبح اليوم في دماغ العامل، يسوقه نحو صندوق الاقتراع! وقد سوّاه على النحو الذي يمكنه أن يصوت بحرية ولأيّ شاء. لكن لم يتضح بعد كيف يحب هذا العامل أن يصوِّت إما لـ«گلدواتر» وإما لـ«جانسون»!؟ نعم إنه حرّ في تصويته لكنه لا يريد غير هذين الاثنين! إذ حينها تكون النتيجة واحدة لأيهما شاء أن يصوّت!

اللعبة التوقيتية

كما تُصْنَع اليوم الأواني من مادة المطّاط، بعد أن توضع مادتها الخام في جرّة فتذوب، ثم تُصَب في حُفَر أُعدت على أشكال الأواني، فينتج عنها الأوعية والأواني كالأبريق والقدح والكأس وغيره، وتعرض في السوق للبيع، كذلك أيضاً أخذوا يصنعون الإنسان!.. يصنعون الجيل!؛ تُعقد جلسة يشترك فيها عالم النفس وعالم الاجتماع والمؤرخ وعالم الاقتصاد واختصاصي التربية والتعليم، فيجلسون معاً ويتذاكرون بينهم فيما لا يعوزهم، ثروةً تمدُّهم وقوةً تُساندهم:

ـ خططوا!

ـ سمعاً وطاعة. ولكن أي إنسان تريدون؟ تفضلوا كي نعمل!

ـ نريد في هذا المجتمع (الأفريقي أو الاسيوي أو الأميركي اللاتيني) جيلاً غير قديم، وأن لا يكون أبلهاً يخضب رأسه بالحناء دائماً. فليس عندنا حناء! لدينا (أدوات الزينة) ولوازمها نريد أن نوزعها هناك فلا يبقى شيء منها. نعم نريد جيلاً لطيفاً ظريفاً جميلاً عارياً من الشعور تماماً، طبقاً للمقاييس العالمية! نعم هذا الذي نريده لا أقل ولا أكثر!

ـ سمعاً وطاعة للمولى! سيجهز بعد أربع سنوات فنضعه تحت تصرفكم!.

(وفجأة نرى، منذ سنة ١٩٤٥ إلى ١٩٥٥ وخلال عشر سنوات نرى أدوات الزينة الأوروبية ولوازمها قد ارتفع مقدارها في طهران إلى خمسمائة ضعف. الاحصائيات الدقيقة تشير إلى ارتفاعها بمقدار خمسمائة ضعف الأصل).

ـ جيد كيف نصنع هذا الجيل؟

ـ نحتاج إلى جيل يرفض الشكل القديم للحياة ويتنكر له، جيل ذو فكر جديد، لكن بالقدر المعتاد لا أكثر. فإنه إذا ازداد تجدّد فكره ذرة واحدة سيكون مضرا! المطلوب أن يكون له طبع لطيف فلا يشرب اللبن، بل يشرب... الكوكا كولا.

إلى هذا الحد فقط، أمَّا إذا تجاوز هذا المقدار، فإنه يسبب المخاطر والمشاكل ويحمِّلنا المبالغ الكبيره! نعم هذا المقدار يكفي! يكفي أن يتجدد إلى حد يكون لطيفاً فيخلع الأزياء القديمة ويلقيها في سلة النسيان. وأن لا يتجاوز شعوره إلى حد يجعله يبتدع أو يختار نوع أو لون أزيائه من تلقاء نفسه. إن الأمر لا يرتبط به! إنه ليس إنساناً حتى يختار! نريده أنْ يخلع ملابسه فقط لا أكثر... !نعم يتجدد إلى حد إن قلنا: «هو»، هو أيضاً يقول: «هو، هو، هو»، وإذا قلنا: «ها»، هو أيضاً يقول: «ها، ها،ها»، وأن لا يفوه بكلمة من نفسه! هكذا نحتاجه نحن.

ـ سمعاً وطاعة. سنصنعه كما تريدون تماماً! بلا اختلاف[١].

ويصنع ذاك الإنسان! يصنع على شكل يضرب به المثل على نحو يضاهي به الذي يبيع الثلاجات في الاسكيمو (كناقل التمر إلى هجر)، ويبيع سيارة رينو مصنوعة من الذهب إلى

---

(١) يتناول شريعتي في هذه الفقرات مسألة صناعة إنسان العالم الثالث وطرق الغرب الامبريالي في الاتجاه الجديد للاستعمار، الذي يختلف عن الطرق التقليدية للاستعمار القديم، على أساس أن الجديد: خفيٌّ يستخدم أسلوب «الاستحمار»، بحيث يغيِّر من بنية الوجود الثقافي للمُسْتَعْمَر ويتحوّل إلى مستهلك وتابع، دون أدنى شعور بالانصهار، بل يغدو من المدافعين عنه.

رئيس قبيلة أفريقية! يضعون سيارة الرينو على ظهر جمل، ويحملونها إلى رئيس قبيلة، لا توجد جادة طولها كيلو متران في كل أرضه، فتربط السيارة أمام قلعة! نعم هكذا يصنعون!

ولم نشعر كيف صار الأمر حتى بلغت بنا الحالة بعد عشر سنوات إلى هذا الحدّ! ولم نشعر بما خسرناه مقابل هذه التغييرات والتطورات! إذ أيُّ شيء يمكن أن يلفت انتباهنا إلى أن الإنسان القريب من الله قد بلغ من الانحطاط حداً، جعله يحفل ويأنس بالرذائل. أيّ شيء يمكن أن يلفت انتباهك إلى ما ضحيته مقابل هذه التلهيّات والالعوبات؟ أي أحد وأيّ نداء وأي صوت يمكن أن يشعره، ينبهه، يفتح عينيه، ويهزّه؟؟ فإذا كانت العين والشعور والمعرفة وكل المقاييس تَرِدُنا منهم وتحمّل علينا من ناحيتهم فنأنس باللون الذي يحملوننا على الانس به، ونستذوق الطعام الذي يستذوقونه لنا. فمن الذي يقدر بعد ذلك أن يُشعرنا بما خسرناه، وبما بقي مجهولاً مقابل تلك الأمور؟

إن الوعي النفسي «النباهة» هي التي يمكن أن تُشعر الإنسان بما فات منه. . تُشعر الإنسان ـ الذي بلغ إلى هذا الحد من الاقتداء والاستهلاك ـ بكل ما يُقدَّم له. كما إن الوعي الاجتماعي هو الذي يمكن أن يشعره بما يجري على مصير

مجتمعه في الخفاء! نعم، إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُنجي الإنسان من هذه البلاهة المتطورة الحديثة المغرية هاتان الدرايتان فقط.

نعم! الأن عرفت الاسمين اللذين يطلقان على هذين المعنيين، الأول النباهة الفردية، والثاني النباهة الاجتماعية، حسن لقد وجدتهما!

عون الظلمة

مهما تطور الفن والصنعة، فإنه ليس إلا طريقاً للتعجيل في خسارة الإنسان. وتبعاً له إذا فقد نباهته الإنسانية والاجتماعية. فالشعب أو المجتمع الذي يفقد نباهته الإنسانية أو الاجتماعية، فما (مهندسه) إلا مصلح للآليات الغربية، وهو خير وسيلة لاستيراد البضائع الغربية إلى بلاده. وما (فنِّيه) إلا دلاّل ظلم يمهد الطريق للاستعمار. وما (عالمه) إلا موظف أجير بالقوة والمال، يستمد فكره ونهجه في التحقيق، من الاجنبي في داخل البلاد وخارجها. وهكذا نرى أدمغة العالم الثالث تنقسم قسمين: قسم منها يُجلب إلى الخارج فيُستهلك في تلك الأجهزة العظيمة، باذلاً نبوغه وقابلياته للأجانب من أجل أن يملأ البطون، ولم يدرِ أي شيء خسر مقابل ألفي تومان يضاف على الراتب! وقسم يعود إلى البلاد ويشكل

الدعامة الخامسة للبلاد، للاستهلاك الأجنبي. فتكون مهمة الأديب والمحقق والفيلسوف منهم استنزاف الأفكار، وتحجيرها، وتغيير الأذهان وتحريفها. ويقوم الفنيون والفيزيائيون والكيميائيون بمهمة تسمينهم!

لم يكن يوجد في أفريقيا مهندس أفريقي قبل ثلاثين سنة، فكان المتمولون الفرنسيون، وأصحاب رؤوس الأموال، يأتون بالمهندسين من فرنسا ويدفعون لهم شهرياً خمسين ألف توماناً. أما الأن فقد شاء الله أن يكون بين الافريقيين مهندسون منهم، ويعملون نفس العمل الذي كان يعمله الفرنسيون، لكنهم يتقاضون الفي تومان فقط!

إن الشيء الذي ينجي الإنسان والمجتمع والأمة من شؤم مصير الاستنزاف الفكري، في طريقتيه القديمة والحديثة، هما: (النباهة الانسانية) التي يتحدث عنها الدين الراقي.. ذلك الدين الذي يتجاوز العلم، و(الدراية الاجتماعية) التي تتحدث عنها الرسالة العقائدية النبوية. وينبغي أن تكون هاتان الدرايتان مقياساً لكل إنسان، سيما في العالم الثالث، فضلاً عن المجتمعات الإسلامية والشرقية، لأنهم متى نظروا للمسائل بغير هذا المقياس خسروا. لأن المزورين في هذا اليوم ليسوا العوبة الأمس النحسة، إن هؤلاء يصنعون في

الأساس عيناً ونظرة. ولذا فإن الإفلات من مصائدهم. والخروج من مضائقهم وانكشاف مخططاتهم يستلزم لأجلها أن يبصر الإنسان، ويعلم في أي مؤامرة غريبة معقدة يوْقِعُون بها جيلاً من الأجيال، وبعدها أي شيء يريدون أن يصنعوا! فإن غفلت عن هذا فستكون جَمَلَ ضحيّةٍ تحت المدية في أيديهم، تنشط في ضغطهم عليك، وترقص لذبحهم إياك!. إن بلاهةً وحماقةً مدهشة للغاية كمثل هذه، تصيب الأجيال في جميع العالم، حتى في الغرب نفسه أيضاً. أما الناس في الغرب، فهم غير تلك الأيدي والضمائر التي تقرر المصير في الشرق.

ـ ٣ ـ

مقولة الاستحمار.. ورباعية

(الاستغلال، الاستعمار، الاستبداد، والاستعباد)

لا بد من مقياس للتطبيق. فعينان ونظرتان، ودراية إنسانية ودراية اجتماعية، وأي دعوة ودعاية وكلام وتقدم وحضارة وثقافة وقدرة تكون خارجة عن إطار هاتين الدرايتين، فهي ليست إلا تخديراً للأفكار، للانصراف عن الإنسانية والاستقلال والحرية. إنه تسخير للإنسان كما يسخّر الحمار. ومن هنا أُطلق على هذا العمل اسم «الاستحمار».

أما الدافع لهذا الاستحمار فقد بلغ درجة من القوة والشيوع في زماننا هذا، لم يسبق لها نظير على ممر التاريخ. كان الاستحمار في الماضي تابع لنبوغ المستحمرين وتجاربهم، أما اليوم فقد أصبح معززاً «بالعلم»، «بالاذاعة والتلفزيون»، «بالتربية والتعليم»، وبجميع وسائل الإعلام، بالمعارض، بعلم النفس الحديث، بعلم الاجتماع، بعلم

النفس التربوي! صار فنّا[١] مجهزاً بالعلم، دقيق جداً. ومن هنا تصعب معرفته كصعوبة دقته.

إن أي مسألة وقضية عرضتها عليكم، فلسفية كانت أم علمية، أم فنية، وإن كانت قضية تقدم المجتمع والحياة، فإنها إذا كانت منحرفة عن «النباهة الإنسانية» و«النباهة الاجتماعية» فهي دعوة كاذبة غاشمة مزورة ،عاقبتها الذل والعبودية والغفلة.

ما الفرق بين أن يكون الإنسان «عبداً حديثاً»، أو أن يكون «عبداً قديماً»؟ وبين أن تكون «جارية حديثة» أو «جارية قديمة»؟ لا فرق إلا في الكلمات. فذاك يسمي الجارية «ضعيفة» وهذا يسميها «لطيفة» والمعنى واحد أي «لست انساناً».

إذاً فمعنى الاستحمار؛ تزييف ذهن الإنسان ونباهته وشعوره، وحرف مساره عن «النباهة الإنسانية» و«النباهة الاجتماعية»، فرداً كان أم جماعة. وأي دافع عمل على تحريف «هاتين النباهتين» أو فرد أو جيل أو مجتمع عنهما، فهو دافع استحمار! وإن كان من أكثر الدوافع قدسية وأقدسها

(١) أي الاستحمار.

إسماً. إن أي عمل ومهمة سوى هاتين النباهتين، أو ما يعد في طريقهما، ما هو إلا وقوع في العبودية، والذهاب ضحية لقوة العدو والاستحمار المطلق. وإن كان عملاً مقدساً وموضوعه مهم جداً.

إنه لمن سوء الحظ أن لا ندرك ما يراد بنا، فيصرفوننا عما ينبغي أن نفكر فيه من مصير مجتمعنا أو أُفكر فيه أنا من مصيري «كإنسان»، إلى أن نفكر في أشياء نحسبها راقية جداً وعظيمة ومشرِّفة، فيصيبون الهدف دون أنْ نشعر! ومن أجل هذا قلت في مكان آخر: «إذا لم تكن حاضر الذهن في «الموقف»، فكن أينما أردت. المهم أنك لم تحضر الموقف، فكن أينما شئت؛ واقفاً للصلاة أم جالساً للخمرة، كلاهما واحد».

إن المستعمرين لا يدعونك لما تستاء منه دائماً، فيثيرون انزجارك فتنفر منهم إلى المكان الذي ينبغي أن تصير إليه! بل يختارون دعوتك حسب حاجتهم، فيدعونك أحياناً إلى ما تعتقده أمراً طيباً من أجل القضاء على حق كبير، حق مجتمع أو إنسان، واحياناً تدعى لتنشغل في حق آخر، فيقضون هم على حقٍّ آخر هو أولى.

عندما يشب حريق في بيت، ويدعوك أحدهم للصلاة

والتضرع إلى الله، ينبغي عليك أن تعلم أنها دعوة خائن، فكيف إلى عمل آخر؟

فالاهتمام بغير إطفاء الحريق، والانصراف عنه إلى عمل آخر، ما هو إلا استحمار، وإن كان عملاً مقدساً أو غير مقدس. فتنبه! حتى لو كانت مناجاة مع الله، أو وقوفاً للصلاة، أو انشغالاً في مطالعة أحسن الكتب العلمية والأدبية، أو أكبر اكتشاف علمي. أو أي عمل تقوم به، أو أي شيء تنشغل به، كل ذلك يدل على أنَّ الداعي قد استعمرك! وألغى وجودك!

إنَّ أي جيل انصرف عن التفكير في «الدراية الإنسانية» كعقيدة واتجاه فكري ومسير حياتي وتحرك دائم، لا كانشغال يومي يزاوله كل أحد، وأي إنسان لا يفكّر في «الدراية الاجتماعية» بمفهوم «نحن»، وإنما يفكِّر في شيء غير مصير المجتمع ومشاكله ومبهماته واحتياجاته، فإن هذا التفكير، حتى لو كان في شيء مقدس، فهو استحمار! وقد استُحمر ذاك الجيل. ولذا فإن الاستحمار قد لا يدعوك إلى القبائح والانحرافات أحياناً، بل بعكس هذا يدعوك إلى المحاسن، ليصرفك عن الحقيقة التي يشعر هو بخطرها، كيلا تفكر فيها فتنبهك «أنت» و«الناس».

وهنا يغفل الإنسان، ويتجه نحو «جمال العمل» ولطافته، غافلاً عن الشيء الذي ينبغي أن يعيه. هذا هو الاستحمار من طريق مباشر.

من التاريخ

اتخذ بنو العباس سياسة غريبة في التاريخ الإسلامي! إذ كان المسلمون في فجر الاسلام إذا أحسوا بخطر يهدد مصيرهم، أو رأوا ظلماً أصابهم من الخليفة أو قرابته، عطّلوا أشغالهم وتركوا الأسواق والمحلات، وهرعوا إلى المساجد، فصاحوا واستغاثوا ودعوا الخليفة للمحاكمة والاستنصاف! كان هذا شعور المسلمين الاجتماعي في زمن النبي ﷺ. وفي زمن أبي بكر وعلى عهد عمر وعلى عهد علي أيضاً، وحتى على عهد بني أمية! وواضح أنه لا يمكن التحكّم والتسلّط بالسهولة والدعة على أناس كهؤلاء، حيث يصعب الظلم والسيطرة عليهم مع هذه الجرأة والجسارة!.. كانوا أهل دراية اجتماعية وانسانية كما ذكرت. لماذا؟ لأنهم مسلمون ملتزمون اجتماعياً بشدة وحرص، إذا سمعوا صوت الأذان هرعوا إلى الصلاة فحاسبوا أنفسهم، وفكروا في مصيرهم و«درايتهم». وحينما رأوا عمر، ذاك الأمبراطور الذي فتح لهم مصر وإيران والروم، يرتدي ثوباً من الغنائم الحربية أطول من ثيابهم بقليل، علت

أصواتهم بالمعارضة يطالبون تقسيم الغنائم بالمساواة لا فرق عندهم بين عمر أميرهم، امبراطور الشرق والغرب، وبين جندي من الجنود خاطبوه؛ لأي سبب ثوبك أطول من ثيابنا؟

اجبروه على المحاكمة لأول مرة وأخذوه لاستئثار نفسه عليهم بذاك الثوب. طالبوه بالعدالة! بدلاً من الثناء عليه واجلاله على فتح إيران والروم. انظر إلى شعور تلك الأمة، أُنظر إلى اهتمامهم والتزامهم بمصيرهم! يستطيعون أن يرفعوا إيران المتحضرة في العهد الساساني باطراف أصابعهم! ويلقون بها أينما شاؤوا، وقد قلعوها فلا يعلم أين ذهبت! لذا فإنهم قادرون على فتح الروم كله. استطاعوا فتح مصر واخضاعها بثلاثة آلاف رجل.

أُناس يغيرون مسير التاريخ ويهتمون بمصير مجتمعهم بدقة وولع! يُجبر (عمر) على الحضور في المسجد ليجيب الناس بنفسه، من غير ممثل، أو ناطق عنه موص بما يقوله! ويأتي بابنه عبد الله شاهداً معه ويخاطب الناس قائلاً: إن سهمي من القماش لم يكفني ثوباً لطول قامتي وقد أعطاني إبني عبد الله سهمه فاضفته لسهمي وضعت ثوبي هذا. هلمّوا فتّشوا، ابعثوا وكلاء منكم، حققوا كيفما شئتم! فإن عبد الله ليس عنده من هذه الغنيمة. . . وبرأوا عمر بعد التحقيق!

إذاً واضح أنه لا يمكن التحكُّم بهؤلاء الناس كيفما كان. وليس لهم علاج سوى الاستنزاف[١]، أي أن تستنزف منهم تلك الدراية السياسية التي يذكرها أفلاطون، وتسلب منهم تلك الدراية الاجتماعية النبوية النيّرة التي ذكرتها. إذا سُلبت لا يبقى بعدها شيء ذو خطر، شاؤوا أن يكونوا علماء أم فلاسفة ليس بذي أهمية. . نصفهم كان كأبي علي بن سينا، والنصف الآخر كالحلاج أم لم يكونوا فلا فرق. وعلى كل فهم ليسوا سوى خدم الخليفة. وهل كان ابن سينا غير ذلك؟ فالرجل الذي طبق في شبابه العالَم بنبوغه، يصير قلما كاتباً «لجلالة الخاقان». واضح أنه لو لم يكن ذا شعور لكان أفضل! يصير الإنسان كذلك إن لم يكن له هدف. إذ لا يجديه حينها علمه ولا فنّه ولا مكانته.

ماذا عن كبار الفنيين والعلماء وكبار علماء الفنون الجميلة وأهل الصنعة؟! تراهم يصنعون «على قابو»[٢] ويضعون «الف

---

(١) هنا تبدأ أول خطوة للاستحمار.

(٢) قصر ملوك الدولة الصفوية في مدينة اصفهان، (عاصمة الصفويين) في إيران. يتميَّز بخصائص فنية تشي بلون من حضارة تلك الحقبة. لذا ذكره شريعتي في هذا الاتجاه، أمَّا مُراده الأصلي هو ما يتعرض له في باقي كتابه، في محاكمته الدولة الصفوية وانحرافها التاريخي علماً أن هذا القصر تميّز برسوم للغواني ومجالس الترف يشي بالتزام الملوك وقيمهم.

ليلة وليلة» في دار الخلافة في بغداد! طبيعي لو لم يكن لنا فن لكان أفضل! ما هي فائدة هذا الفن وهذا العلم؟ لا شيء فقد ابعدوا الناس عن مسيرهم بالنسبة «للدراية الاجتماعية!».

يأتي زمان بني العباس... ويتزوج جعفر البرمكي العباسة، أقيمت وليمة الزفاف وطُبخ من الطعام ما أخذوا يخرجون باقيه من بغداد عدة أيّام، حتى تجمع جبل من الطعام خارج المدينة. وبعد أن تغذت منه الطيور والحيوانات أياماً، تعفّن فأخذ يهدّد صحة الناس وسلامتهم. مما اضطرهم إلى استئجار جماعة لابعاده عن المدينة! فلم يظهر رجل من المسلمين في كل المجتمع الإسلامي ليقول لهم؛ هذا الطعام الكثير إسراف في الدين. نعم! لم يقل ذلك أحدٌ، لا عالم ولا فقيه، لا شاعر ولا نبيه ولا غير نبيه، ولا فيلسوف، ولا إمام ولا! لماذا؟ لأن «الدراية الإجتماعية» لم تكن موجودة لديهم! لكن هؤلاء الناس الذين لم يُبدوا اهتماماً لذلك السرف كله كانوا يجتمعون معاً ويتحدثون فيما بينهم، يتسامرون ويحتفلون! لأي شيء!؟ لأنهم اكتشفوا لغة، أو وجدوا قاعدة نحوية للّغة العربية! عثروا على كتاب في الطب والأدوية يريدون أن يترجموه ليحصلوا على وزنه ذهباً! وبلغت الأبحاث الفلسفية والعلمية والأدبية، وعلوم الجمال والفن ذروتها، حتى ظهرت الحضارة الإسلامية العظيمة في زمان بني العباس! لكن

هذا لا يجدي فهؤلاء الناس لم يبق لهم شعور بالنسبة إلى مصيرهم الاجتماعي، فكانت النتيجة يوم دخل المغول، لم تجدِ حضارة ولا اقتدار ولا معرفة. هدأ الجميع كالغنم، الضحايا تحت سياط وسيوف المغول. فلم تبق حشمة ولا جلالة ولا حضارة اسلامية ولا امبراطورية اسلامية في الشرق والغرب إلا وخضعت المغول. لأي شيء؟ لأن «الدراية الاجتماعية» كانت عديمة! وهكذا نجد دافع الاستعمار في زمان بني العباس هو العلم، والحضارة والفن، والأدب والتحقيق العلمي، والفني، والأدبي واللا أدبي[1].

(١) عن هذا أعاب شريعتي، إسلام العلماء والثقافة في كتاباته، والذي جعل طرازه ونمطه (ابن سينا) ودعا إلى إسلام الأيديولوجيا والوعي، والذي جعل طرازه (أبو ذر الغفاري)، والمدار هو النباهة الفردية والاجتماعية (الوعي الوجودي)، لذا يخالف شريعتي ذلك التفاخر في تلك الحقب واعتبارها وجهاً حضارياً، بل يجعل ذلك المسار المعرفي السائد حينها شكلاً من أشكال الاستحمار، أي كان السبب الذي أفضى بتلك النهايات المؤلمة.

ـ ٤ ـ

الاستحمار الديني.. (الماهية، النشأة، الأسلوب)

الاستحمار نوعان: استحمار قديم واستحمار حديث كالاستعمار تماماً فمنه قديم ومنه حديث. والاستحمار كما ذكرنا دافع لانحراف، أو طلسمة الذهن والهائه عن «الدراية الإنسانية» و«الدراية الإجتماعية»، واشغاله بكل حق أو باطل، مقدس أو غير مقدس. هذا تعريف جامع للاستحمار. إلا أن هناك «استحمار قديم» و«استحمار حديث».

كان الدين دافع قوي للاستحمار القديم. بينما الدافع للاستحمار الحديث هو كل تشاجر وتحارب إيهامي كذب، أمَّا أسماء الوسائل والأدوات التي تستخدم في هذا المجال فهي كما يلي:

في «الاستحمار القديم»[١] يُستفاد من (الزهد، الأخلاق، التصوف، الشعر، القومية، تعظيم وتجليل الماضي، الفلسفة، الشكر، الثواب، الشفاعة، والوصول الفردي إلى الجنة ودخولها. . .) وفي الاستحمار الحديث يستفاد من: (التخصص التحقيق، العلم، القدرة، التقدم، الحريّة الفردية، الحرية الجنسية، حرية المرأة، التقليد والاتباع و. . .).

الدين الاستحماري

بعد انقضاء فترة الأنبياء العظام الذين بلّغوا الدين واضحاً وصادقاً في ذروة الحقيقة، وقع مصير الدين في أيدي قوات استحمارية مضادة للإنسانية، تتسمى باسماء كالطبقة (الروحانية)، والطبقة (المعنوية)، والطبقة (الصوفية)، وطبقة (الرهبان)، وطبقة (القسيسين). فاتخذوا من الدين وسيلة لاستحمار الناس ـ الاستحمار الفردي والاجتماعي ـ لأن الدين يعتني ويهتم بكليهما، وبالأخص الإسلام الحنيف، الذي يشمل «الدراية[٢] الإنسانية» و«الدراية الاجتماعية» و«الدراية الفردية».

---

(١) الديني الذي يتسق مع الاستعمار في جهة الاستغلال، إلا ان الأول داخلي والثاني خارجي ليس إلا، لذا غالباً ما يتَّحِدان.

(٢) يريد شريعتي من الدراية ـ حينما يوردهما مع الفردية والاجتماعية ـ النباهة، ومع أنَّ المرادفة اللغوية بينهما (الدراية والنباهة) ضعيفة، إلا انهما على=

وكلامي هنا يدور حول الدين الاستحماري، الدين المضلِّل، الدين الحاكم، شريك المال والقوة، الدين الذي يتولاه طبقة من الرسميين الذين لديهم بطاقات للدين، لديهم اجازات للاكتساب وفيها علامات خاصة تنبأ عن احتفاظهم بالدين، وأنهم من الدعاة ولكنَّهم من شركاء الاثنين المذكورين[١]. . كلامي يدور عن هذا الدين. لأيّ شيء يسخر الناس كالحمير، أي يستحمرهم؟ وما الذي جعله أكبر وأقوى مستحمر في المجتمعات القديمة؟ ماذا يفعل هذا الدين بالإنسان فيستحمره؟

ليس باستطاعة الدين أن يسلب منّي «نباهتي الفردية» ولا

= مستوى المفهوم يقتربان كثيراً إن لم يتوحّدا ـ وشريعتي يتكلم على مستوى المفهوم ـ إذ دينامية النباهة تقوم على الدراية، لحملها دلالات الوعي والتعقُّل، ويمكن قبول ذلك إذ ما عدنا لاصطلاحي علم الحديث (الرواية والدراية)، حيث كان اتجاه الدراية في الفكر الإسلامي ممثلاً للنزعة العقلية في فهم النص اعتماداً على روحه ومقاصده وآليات العقل والواقع، لا على شكله وإطاره، كما هو مع إتجاه الرواية.

(١) أي أصحاب المال والقوة، إشارة إلى السلطة الاقتصادية والسياسية، أو بتعبيرات شريعتي العديدة، عن هذا الثنائي الذي يشكل لديه مع الدين الاستحماري طرف الصراع الدائر في التاريخ مذ بدأ وإلى أن ينتهي حيث يعبّر عنهم مرّة بـ «فرعون، قارون، بلعم بن باعوراً»، تأصيلاً عن القرآن في علم الاجتماع الإسلامي الذي دشّن كثيراً من أبعاده، وتارة أُخرى بتعبير «الملك والمالك، والملاء»، وأخرى بـ «السوط، الذهب، والمسبحة»، وغيرها.

مسؤوليتي بالنسبة إلى مصيري أو مجتمعي. إذاً ماذا يعمل حتى يصير مُسْتَحْمِراً؟ قد يكون عمله أمراً واحداً، هو نقل الإنسان بالنسبة إلى الظروف والزمان! أي يقول لك:

- دع الدنيا فإن عاقبتها الموت!

- ادّخر كلّ هذه الحاجات والمشاعر والامنيات إلى الآخرة، إلى ما بعد الموت! ليس الفاصل الزمني بكثير، ثلاثون أو أربعون أو خمسون سنة لا قيمة لها! بعدها كل شيء تحت طوعك... وتكون من أولائك الذين هم فيها خالدون!

- إنها سنوات العمر القصير لا قيمة لها، دع الدنيا لأهلها! ويقصد «بأهلها» نفسه وشريكيه الأخيرين.

يسلب ذاك الدين[1] مسؤولياتي تجاه مجتمعي بطريقتين:

الأولى: يأخذ منّي إمكانياتي ومواهبي التي امتلكها، ويحرمني منها، فيلزمني أن استعيدها من أجل كوني «إنسانا»، ومن أجل «داريتي الإنسانية». كما ينبغي على أن أرفض الظلم من أجل الحاجة إلى العدالة. أما دين الاستحمار فيدعوني إلى

---

(١) في هذه المواضع حينما يجعل شريعتي كلمة الدين مطلقة، فهو يريد بها الاستحماري منه، أو ما يسميه بـ«الدين الذي ضد الدين» الذي خصص أحد كتبه له. وفي هذا يلزم مما وراء النص. على أنَّ كل ما يسلبه الدين الاستحماري يمنحهه الدين الحقيقي.. دين الوعي والأيديولوجيا.

التمكين من الظلم والفقر والسكون والصبر، ويكلني إلى «العباس عليه السلام»[١] ويزيح عني كل مسؤولية!

الثانية: حين أرى نفسي مقصراً، خائناً مسيئاً إلى المجتمع ومصيره، أقع تحت ضغط مسؤولية ضميري، فتجرُّني «الدراية الاجتماعية» إلى أن أرجع حقوق الناس إليهم، واستسمحهم فيما فرّطت في جانبهم. لكن الدين الاستحماري المنحرف يموّه عليّ ويقول لي:

صحيح أنك خنت وبعت مصير الناس للآخرين إلا أنك لا تستطيع أن ترجع حقوقهم عليهم وليس هذا صواباً! هناك طريق أسهل. ما هو؟، أن تقرأ هذه الكلمات[٢] ست مرات

---

(١) يعظّم شريعتي الأئمة في وجودهم الديني والتاريخي الإنساني إلى أقصى الحدود، لذا لا يقصد هنا بـ «يكلني إلى العباس» سوى انه يكلني إلى الغيب، ويفقدني قدرتي على صناعة مصيري بنفسي، وإشارته إلى الإمام العباس بالخصوص، فرضته الحالة الجغرافية والمذهبية، وألاّ تتعدد الأمثلة في العالم الإسلامي بأقاليمه ومذاهبه كلٌّ له رمزه الخاص. علماً أن هذه الظاهرة تثار كحالة بارزة عند المسلمين، بما تعرف بالظاهرة الغيبية، قبال الوعي السُنني بالتاريخ ومسؤولية الإنسان في تحديد مصيره، كما أنها تثار عند شريعتي في مسألة ما يسميها بـ«عبادة الشخصية».

(٢) إشارة إلى الأدعية الموجَّهة في إطار يوحى لك به، أنْ لا حاجة لأي مجهود دنيوي للحصول على ما تريد، وبالتالي عزل الإنسان عن مسؤوليته ودوره في وجوده الفردي والاجتماعي، بحيث يغدو الأمر نسخة طبق الأصل من ظاهرة صكوك الغفران في المؤسسة الدينية المسيحية في القرون الوسطى ولكنها بامتياز.

وأنت متجه نحو القبلة! فلن يبقى عليك شيء، وستغفر ذنوبك كلها لأنك حينها ستنال الشفاعة، العفو، الرحمة! وان ربّ (هذا الدين) سيصفح عن جميع السيئات، والقبائح، والمنكرات بسهولة، وسيمحي ذنوبك ولو كانت عدد رمال الوديان، ونجوم السّماوات، بنفخة واحدة!

ثم تتساءل إذاً لأي شيء أتحمل ثقل المسؤولية الاجتماعية؟ لماذا؟ إذا كانت مسؤوليتي نحو الناس وحياتهم الاجتماعية تلزمني أن أموت من أجلهم، وأُضحى بنفسي في سبيلهم، فهناك طريق أسهل! هو «كتاب الأدعية» فإنه يفتح لي أبواب الجنان من غير تعب ولا نصب، ولا مشقة، ولا تشويش، وبدون (شعور)! أو فكر، وبدون أيّ مسؤولية! يكفي أن تدخل السرور في قلب أحد، أو تقضي حاجة أحد، فإنه سيمحي كل ذنوبك، ويبدل سيّئاتك حسنات، ويقضي عنك كل المسؤوليات الاجتماعية! هذا هو الدين المُسْتَحْمِر.

ومن ثم نرى الدين المُسْتَحْمِر يكل استيفاء حقي، وأخذه ممن ظلمني إلى ما بعد الموت. هذا بالنسبة لي وأنا مظلوم، أما عندما أكون ظالماً، فإنه يعلّمني أن لا استرضي المظلوم على ما فرطت في جانبه، بل ينبغي عليّ أن أطلب «رضا ولاة

الله والدين»! فيُصدِّق لي أولئك الولاة بالنيابة عن جميع المظلومين، وحتى عن الله، على جواز دخولي الجنة. . . !

ومن هنا فإن دين الانحراف يدعو الطرفين «الظالم» و«المظلوم» إلى الاستحمار. ويبدّل كل القضايا إلى مسائل ذهنية، ويتكفل رفع كل المسؤوليات الاجتماعية بسهولة وبمكر خاص! لا يعرفه سوى ولاة الله الرسميون والوسائط الرسمية المدربة على كاهل صالح وغير صالح!

الزهد

الزهد نوّع من الاستحمار، لأنه يأمر الإنسان أن يترك حقوقه الاجتماعية، وحاجاته الطبيعية على حدة، ويقطع حبل الأمل منها جميعاً! ويبقى الإنسان مرتبطاً بحاجات بسيطة جداً، لا تتجاوز حاجات الحيوان. وكذلك أيضاً يسلب الدراية النفسية، ويمسخ حق الفرد في أن يتمتع كإنسان بجميع المواهب والنعم التي خُلِقَت له في الدنيا، وليس لأحد أن يمنعه من التمتع بها، ويسبب حيلة للإنزواء والقناعة بلوزة عن الطعام، فيَمُنَّ بها الزاهد على الله في أنَّه ارتكب هذه الحماقة، ويدعو الناس جميعاً إلى ترك حقوقهم، والتخلص من حطام الدنيا لصالح أعدائهم، أهل المطامع والأحراص. (ولذا ترى الزهد وسيلة لتنفيذ الظلم).

الشعر

لاحظوا نموذجاً من الشعر، لدينا كتاب يعود تاريخه إلى سنة ٦١٨ هجرية، وهي السنة التي دخل فيها المغول إيران، وخربوا (بَلَخ)[١]، ونهبوا كل الشمال، وتركوا إيران تسبح في لجة من الدماء. يقول فيه كاتبه: «أنا هارب وفارّ، نحن كلنا في حالة هرب، لأنّ المغول جاؤوا إلينا... إنهم آتون، وها نحن نفرّ طلباً للنجاة!» في تلك الظروف، وفي ذاك الحال، كان المؤلِّف ينظم الشعر في كتابه! ما هو الكتاب؟ الحقيقة إلى كم يرتفع الصلف[٢]؟! وإلى أي حد يصل الاطمئنان! ينظم قصيدة فيها مئة بيت، يرتب الكلمات والعبارات في الأبيات على نهج، إذا قرأت القصيدة على نحو تكون قصيدة في مدح الخان! وإذا قرأت على نحو آخر وجدتها تغزل في وصف شخص آخر. هذا النوع من النظم يسمى «صنعة المطيّر» مأخوذ من الطير. وإذا قرأت على شكل الشجرة، أي إذا وضعت الكلمات مكان الغصون والأوراق والثمر، يكون شعراً من نوع الرباعي في وصف مولى. ويقال لهذه الصنعة صنعة التشجير مأخوذ من الشجرة.

---

(١) مدينة في أفغانستان، ينسب مسقط رأس رائد الإصلاح الديني جمال الدين الأفغاني إليها.

(٢) الصلف: التمدّح بما ليس فيه أو عنده.

وإذا قرأت بعد ترتيب كلماتها على شكل بقرة أو حمار، يكون مدحاً للخاقان! احسبوا كم يحتاج الإنسان إلى مدة من الزمان ليدخل سبع أو ثمان قصائد ومنظومات ورباعيات بعضها ببعض، ليخرج للناس أعمالاً مختلفة! أمر يحتاج إلى مزيد من الفطنة والدهاء، ليكون الشاعر قادر على نظم قصيدة تقع الكلمة الثانية من البيت الأول فيها، موقع الكلمة الثانية والعشرين من منظومة تغزلية، وتقع الكلمة الحادية عشر من المصراع السابع مبدأ شعر رباعي، والكلمة الثالثة من المصراع السابع شعر حماسي (هذا إلى جانب الوزن الخاص والمضمون الخاص لكل نوع من تلك المنظومات). لا بأس، ما هي الفائدة من هذا العمل، بينما كان جنكيز يجول البلاد طولاً وعرضاً، يقتل وينهب ويحرق، يفر هذا الشاعر على وجهه طالباً النجاة، ويقوم بعمله هذا في حالة فراره. أنظر كيف يُمسخ الإنسان، إنه لضحية الاستحمار.

كان في طهران شاعر فصيح ينظم باللغة العربية أيضاً، إلا أنه ليس لديه قدرة على نظم الشعر القومي والحماسي، أو يستخدم الصنائع البديعة. وكان رئيس مكتب للاسناد والزواج والطلاق رجل شاعر! حاول أن ينظم شعراً في موضوع ما فلم يجده، فجمع كل المطالب الخطية التي وزعتها دائرة تسجيل

الاسناد العامة على مكاتبها الرسمية من سنة ١٣٢٠[(١)] إلى سنة ١٣٢٧ فنظمها شعراً عربياً! متى؟، في السنوات بين ١٣٢٠ و١٣٢٧ في الفترة التي كانت إيران تعاني الضغط من احتلال أربعة جيوش اجنبية! إنه مصاب بداء الشعر! انظروا إلى الفترة الزمنية بين سنة ١٣٢٠ إلى ١٣٢٧، تجدون مصير إيران وحاكميتها، ووجودها، وحروبها الداخلية والخارجية، والأطراف المتنازعة فيها من أهم الأحداث. بينما يمضي هذا الأديب ليخرج إلى مجتمعهم ذاك العمل الذي يظهر فيه أثر الفن والروعة! هذا هو الاستحمار بواسطة الشعر!

القومية

كان الألماني البائس في زمان هتلر يَعضُّ على قطعة سندويش وهو يقول وملؤه الفخفخة والغرور: أنا عازم على الحرب! ـ ولكن لأي شيء تحارب؟ ـ لأن هناك في أمريكا يوجد خمسة ملايين من الشعب الجرماني أريد أن أرجعهم إلى المانيا كي لا يتلوث أصلهم فيمتزج بسائر القوميات!

ما أسخفه! إنه يموت جوعاً وبؤساً وفاقة، ولا يشعر

(١) التقويم الهجري الشمسي المعتمد في إيران، ويزامن ذلك التاريخ تقريباً ١٣٦١هـ. ق، و١٩٤٠م.

بذاك، ولا يدرك مدى تأثير الدعاية المزيفة عليه. ثم يريد أن يخرج خمسة ملايين نسمة من الشعب الجرماني! يخرجهم من أمريكا، ويعود بهم إلى المانيا كيلا يختلط جنسهم بالعروق الأخرى فيتلوث!.. جيد، لا عمل له غير هذا.. لقد تمركز الاستحمار في قلبه!

الفخر والاعتزاز بالماضي

كان إيراني ومصري يتحادثان ويفخران بماضيهما كثيراً - اعتزاز المصريين وفخرهم كله بالاهرام وقبور الفراعنة ويخرجون جثماناً دفن قبل خمسة آلاف سنة من قبره ويأتون به إلى الساحة «نموذجاً»! ولم يعوا أن أي جرثومة قذرة كان هذا المرحوم في حياته! حتى تكون ميتته «نموذجاً» - فيخاطب المصري زميله الإيراني[1] قائلا:

(١) بأي شيء يموهون على الإنسان! يعدمون المفاخر الموجودة، ويسلبون القدرات الحالية، ولا يعتنون بها، ثم يفخرون بالماضي! فهذا الشاعر الموسوم في العراق بالشاعر الفاسق المنحرف اخلاقياً، كان يتجول في البلدان، إذا دخل بلداً أفسد فيه، فطلبوه، فهرب. فيدخل بلداً آخر ويفسد فيه كالأول، وكان هذا دأبه! لكن انظروا الأن ما يعمل له من تجليل وتعظيم وتكريم! يطبع ديوانه كل سنة مرة، ويقرأ شعره كل ليلة من الإذاعة والتلفزيون ويوصف بالأدب والعرفان، يعطى الأولوية في التحقيق في شعره وأدبه. بينما كم لدينا الأن من قابليات شعرية وأدبية حية، وموجودة بدون أن يعتنى بها أو يشجع صاحبها! في الوقت التي هي أثمن وأرقى من الناحية=

قيل إنه عثر في أهرامنا على بكرة واسلاك وخيوط، فاتضح بعدها أنه كان لدينا آنذاك أجهزة مخابرات سلكية! فرد عليه زميله الإيراني: نحن في إيران كلما تحققنا وفتشنا في آثار تخت جمشيد، لم نعثر على أثر بكرة أو أسلاك أو خيوط، ومن هنا يتضح أنه كان لدينا آنذاك أجهزة مخابرات لاسلكية!... فرحون بهذه الأشياء. فخفختنا وفخرنا في قضايانا القومية البائدة! بينما يوجد الآف النوابغ والاسناد التاريخية والعلمية في الحضارة الإسلامية يعرفها العالم كله. وفي زماننا هذا، وحتى في هذه الظروف هي شاهد على قابليات الفرد الإيراني بين الشعوب من الإفرنجيين وغيرهم ومع ذلك نتجاوزهم.

إن هذا الاعتزاز بالماضي، واللجوء إلى القضاء والقدر، والشفاعة والثواب والشكر، والتشويش والاضطراب من الذنب والفوز الفردي بالجنة، كله من أدوات الاستعمار القديم. إما

= الأدبية والإنسانية مما قاله ذاك المتهور! لكنها ضائعة! حتى أنها تبقى مهجورة فتباد وتبلى، ولا تسمح الظروف المالية وغير المالية بطبعها! ويبقى أهل تلك القابليات يخطون بأقلامهم ليلاً ونهاراً لسد جوعهم ومن يعولون بهم. أو يصبح أحدهم حارس بوابة أو محاسب شركة! لماذا؟ لأن قيمة وثمن الشيء تعلو وترقى بنسبة قِدَمِه!. (شريعتي).

أن يتابع الإنسان أعماله لنفسه منفرداً ويدخل الجنة وحده! يقرأ الأوراد ثم الجنة! طيّب لكن ماذا عن الناس؟ ينقطع عن الناس؟

وجد طريقه في كتب الأدعية! كل من يعمل هذه الأعمال يدخل الجنة! أي طريق نجاة فردي لدخول الجنة! . . . وهذا أكبر استحمار! وأكبر مصيبة تصيب المجتمعات الدينية، وهي أن تقع في الاستحمار عن طريق الأديان المحرّفة.

الشكر

لا الشكر الذي يوصي به الدين الصادق، «دين المعرفة» الذي هو أكبر دليل على معرفة الإنسان، وهو عبارة عن دراية الإنسان ووقوفه على قيمه، ومعرفته بالنعم والمواهب الموجودة عنده، لا بل الشكر الذي تقول به فلسفة الدين المزيفة، أي الشكر على التعاسة والنحاسة بنفسها! الشكر الذي هو فلسفة العجز والفاقة!

وهذا الشكر كشكر ذاك الرجل الذي كان يقول «الحمد لله الذي لم يجعل أذنينا تحت إبطينا». حقاً إنه لبائس تعيس، لم يجد نعمة غير هذه النعمة، فهو يفتش عن شيء يشكر الله عليه! الحمد لله الذي لم يجعل أذنينا تحت إبطينا! لو كانت

تحت إبطينا لكنا مجبرين على رفع الابطين كلما تكلم أحد لنسمع ما يقول! ولكانت الكيفية مضحكة جداً! . . . أما الآن فبدون أن نحرّك ساكناً نسمع ما يقوله المتكلم، إذاً لك الشكر يا الله!

كان أحدهم يأكل «ثريداً» ويقول شكراً لله! فسمعه أحد وقال له يا هذا لا تخجل الله! على أي شيء تشكر الله؟

يذكر أن «مقدساً» كان يرقى المنبر أيام شهر رمضان. . الحقيقة أنه من أولئك «الأشراف»، لكنه كان يرقى المنبر رجاءً للثواب. وكان يشكر الله كل يوم مرة، كجزء من ثلاثين شكراً! لأنه كان يكتشف كل يوم نعمة للناس، ويقول الناس شكراً لله! مثلاً يأتي يوماً ويقول أيها الناس شكراً لله! أُشكروا! فيصيحون كلهم معاً شكراً لله! ثم يقول لهم هل تعلمون على أي شيء تشكرون؟ فيسألونه على أي شيء نشكر؟ فيجيبهم، إفرضوا أن غداً يوم القيامة، فجاءت ملائكة العذاب، وقالت لكم إن الله أعطاكم عقلاً وشعوراً وفطنة وصحة وقابلية وقدرة، فلِمَ لم تطيعوه؟ لأي شيء أذنبتم؟ لماذا لم تساعدوا الناس؟ لِمَ أسأتم؟ وحيث أنتم عوام، لا تعرفون كيف تجيبون الله، ينبغي عليكم أن تشكروه على جعله إياكم عواماً. وأجيبوه عندما يسألكم تلك الأسئلة:

ربَّنا، «جوابُ الأبله الصَمْتُ!»[١]

وغداً يصعد المنبر فيقول «الشكر الثاني». قولوا شكراً لله. فيضجون كلهم معاً «شكراً لله»، لكن أي شكر هذا يا مولانا؟ فيجيب: ليتصور أحدكم أنه جالس في ليلة من ليالي الصيف على سطح داره، ويضع أمامه كأساً فيه سكنجبين[٢] ويضيف عليه خياراً ومقداراً من حب القنّب، ثم يضيف عليه قطعاً من الثلج فيكون الجميع كالبرد، فيضعه عند رأسه وينام. وفي منتصف الليل، عندما يمر جبرائيل من تلك السماء، ويرى ذلك الكأس، فإنه لو كان مخلوقاً على النحو

---

(١) أي ليس لديهم جواب، لأنهم لا يعرفون لماذا فعلوا تلك الذنوب؟ ولم يكن لهم قصد وتجري في عصيان الله فيها، وعلى اعتبار أن الأبله لا يحاسب، لاقترابه من معذرية الجاهل فقهياً، وحدسي كبير في أن هذا الخطيب استعان بفهم محتال على الحديث الشريف: «إنَّ أكثر أهل الجنَّة من البُله». عموماً بذلك يمكن التخلُّص من العذاب، فلله درّه ما أتقاه وما أعلمه من خطيب يعلمهم طريقة في التحايل على الله سبحانه ـ أستغفر الله ـ وكأنه يمكن، وبذلك قد خرج عن تنزيه الله في كونه (المحيط والعالم) فكيف وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

انظروا كيف توجَّه مفاهيم الدين، ومنها «الشكر» هنا، وكذلك كيف يوجّه صنف «العوام» في دلالة تحمل في طيّاتها بُعدَ التحقير حدّ تقريبهم من الحيوان. عموماً هذا الاتجاه التبليغي هو ديدن رجال الدين الاستحماري، والذي أفضى إلى لبس الإسلام مقلوباً، وبالتالي خبو وعي الأمة ودمار وجودها.

(٢) شراب إيراني.

الذي يمكنه أن. . .؟ لفاجأت كأسك وقد. . . جبرائيل. وعندئذ أي شيء كنت تعمل؟ أما الأن فقد خلق العلي الأعلى جبرائيل على نحو لا يمكنه أن. . . . إذا شكر الله قولوا بصوت عال شكراً لله!

هذه فلسفة حياتنا! وإنّا وإن حسبناه الآن سخرية إلا أنه فلسفتنا الحياتية! انظروا إلى عامة شعبنا بأي شيء اقتنعوا ورضوا، ثم إلى أولئك المقدسين المدنوين منه، إلى أي حد هم أرضى وأقنع!؟ إنهم راضون بنسبة بؤسهم وتعاستهم، وشاكرون على «نعم» الله بتلك الدرجة والميزان أيضاً! ما هو هذا الشكر الاستعماري!؟ إنه معاكس للشكر على «معرفة النعم» تماماً.

وما هو إلا «غفلة عن النعم» وغفلة عن الشقاء. لو وافقناهم على هذا الجهل وعلى هذه الغفلة عن النعم التي سلبت منهم وهم يكررون «شكراً لله»، «شكراً لله أننا لم نصر إلى أسوأ من هذا الحال!» انظر دائماً لمن هو دونك! «لو كان هذا صحيح لما كانت حاجة للتقدم! لو كان الأمر يقتصر على أن ننظر نحن إلى أفغانستان فنقتنع وينظر الافغانيون إلى اليمن فيقتنعون وينظر اليمنيون إلى موزامبيق فيقتنعون إذاً لأي شيء نتحرك؟ لأي شيء؟ إن هذا النوع من الشكر لله فلسفة

الرّجعية! ومصيبة كبرى! وهنا لديَّ سؤال هو؛ هل المتجددون مصابون باستحمار فلسفة الشكر الحمقاء هذه؟ بدون أن يشكروا الله أم لا؟ الجواب نعم. إن المتجددين مصابون بنفس هذا الاستحمار لكن بصورة جديدة ومحترمة! وإلا فهم كاولائك في البلاهة، لأنهم راضون وشاكرون بما لديهم، ومما يوفر سرورهم ويعدونه مؤثِّراً في تقدمهم وتوفيقهم، ومكانتهم الاجتماعية وحريتهم الفردية، واستيفاء حقوقهم ومن معيشتهم اليومية. ولعلهم يشعرون بلذة ورضى من هذا كله، ولسان حالهم يردد «شكراً لله»! لكن انظروا إلى رضاهم من أجل أيّ شيء وأية قضايا!؟... إنه لنفس شكرهم الأحمق السخيف!

ـ ٥ ـ

بين التجهيل والإلهاء

الاستحمار نوعان؛ استحمار مباشر واستحمار غير مباشر.

المباشر منه عبارة عن تحريك الأذهان إلى الجهل والغفلة، أو سوق الأذهان إلى الضلال والانحراف.

أما غير المباشر فهو عبارة عن الهاء الأذهان بالحقوق الجزئية البسيطة اللافورية لتنشغل عن المطالبة أو التفكير بالحقوق الأساسية والحياتية الكبيرة الفورية.

لنفرض أنني قيّم على صغير، وأُريد أن أُلهيه كي أختلس ممتلكاته وانقلها باسمي وهو لا يعلم! هذا قصدي. فأتحقق من طرازه ونوعه، واختار له أداة استحمار من نوعه. كل أداة تلهيه عن تلك الخطة التي أعددتها له كي أنفّذ إرادتي دون أن

يشعر بقصدي فهي استحمار . أي أداة استحمار كل فرد ترتبط بنوعه[١] .

تارة أراه جميلاً ذا قامة متناسبة أشجعه على الرياضة، وأذكر له محاسنها ومنافعها بالنسبة له، فيسير في واد من الخيالات والامنيات كالمباريات والشهرة العالمية والأولمبيك ومن هذا القبيل!

وتارة أراه ليس من هذا النوع بل من طراز أُولئك المثقفين والمتجددين، أشجعه على الدراسة والاستمرار بالدرس والحصول على شهادات عالية، وأذكر له فوائد العلم وإن طلب العلم فريضة. . . ! وأعمل على أن يسافر إلى أميركا لاتمام دراسته وأتكفّل بإرسال ثلاثة أو أربعة آلاف تومان له شهرياً وإذا

---

(١) تعتبر هذه المقولة أسّاً في توجيه نسبية الاستحمار ـ زماناً ومكاناً، فرداً وأمّة ـ في جهة آلياته، أي تتغيّر تلك تبعاً لتلك النسبية، علماً أنَّ تحديد شريعتي المقولة بالفرد، لا ينبغي فيها حصرها به، فالأمر عينه ينطبق على الشعوب، إذ أيضاً أداة استحمار كل شعب ترتبط بنوعه، أي بماهيته ونمط ثقافته ومعتقداته أو ما يسمى عادة في علم الأنثربولوجيا بروح الشعوب، أو طابعها العام المميز لها عن الشعوب الأُخرى، ومثال ذلك ما فعله الغرب في الجزائر قبل وبعد التحرير بالذات مع العرب والبربر، ومحاولة استحمارهم ضمن مسألة الإسلام والقومية، وكذلك ما كان في الهند، وكذلك العرب مطلقاً إبّان حقبة الاستقلال، بل كان الأمر مع معظم دول العالم الثالث. إذ الإستحمار، الآلية المركزية للاستعمار كما يرى شريعتي.

اقتضى الأمر إرسال مبلغ أكبر ارسله له أيضاً وأفي بكل ما وعدته! لكن هذا كله أداة وحيلة لاختلاس ثروته وميراثه.

تارة أُخرى، أراه غير صالح للرياضة ولا للدراسة، بل هو من نوع أُولئك العاطفيين يهوى العزلة والخيالات و. . . فأُشجِّعَهُ على الصوم والصلاة والأدعية والزيارات وابذل له كل ما يريد من أجل نذر وزيارة وجنة وآخرة. لأي سبب؟ من أجل أن أُلهيه وأقضي حاجتي معه. وهنا نرى أن الدين والرياضة والفن والدراسة والعلم والخير والشر وكل شيء وكل وسيلة هي استحمار[١]! لأنه أداة للالهاء والانشغال عن الحق الفوري. إذاً أداة الاستحمار تُنتخب حسب نوع الفرد الذي يراد استحماره، وبالتالي يحرّك المستحمرون الفرد نحو ميوله؟!

جماعة تنشغل بالأدعية والأوراد وفريق ينشغل بالرياضة وجماعة بالفن وفريق بالعلم ومنهم بالتحقيق وجماعة بالعرفان

(١) مع ما تملك هذه العناوين من دلالات سامقة في الوجود الإنساني، إلا إنَّ ذلك ليس في ذاتها، وإنما بما تؤدّيه، حيث معيار الأشياء والمفاهيم عند شريعتي هو مؤدّاها وفعاليتها الاجتماعية، لذا كان اتجاهه اجتماعياً في فهم الدين، فإن كان العلم والفن وباقي العناوين المذكورة آخذة الوجود الإنساني فرداً وجماعةً إلى مهاوي تختلف في أنماطها فحينها تكون آليات استحمار لا إستكمال.

وفريق بالزهد والكل بما لديهم فرحون!

إذاً كل شيء يشغلني أنا كإنسان، ويشغلنا نحن كمجتمع عن «الدراية الإنسانية» و«الدراية الاجتماعية» فهو أداة استحمار.

المعركة الإيهامية

الحرب الإيهامية احدى أدوات الاستحمار والإلهاء عن الدرايتين المذكورتين.

ذكر عمي الساكن في قرية «مزينان» أن سيداً في هذه القرية عاملني معاملة مضحكة أصبحت منهجاً عاماً في العالم.

عمي يحب «الديكة» كثيراً، أتى السيد ذات يوم إلى عمي فقال: في بهمن آباد (بالقرب من قريتنا) تباع الديوك رخيصة جداً.

ـ كم ثمن الواحد مثلاً؟

ـ ديوك جميلة وسليمة غير امريكية يباع الواحد بخمسة توامين! (ينكر عليه عمي) لا كيف يمكن هذا؟ يباع الديك هنا بعشرة توامين! وعلى مسافة كيلومتر واحد فقط يباع بخمسة توامين؟ لا يمكن هذا!

ـ لا يا مولاي! إنه ممكن، أعطني الثمن فأتيك بالديوك!

ـ خذ! هذه خمسون توماناً آتنا بعشرة! (ويمضي السيد وبعد ساعتين يعود بعشرة ديوك كبار وسمان والواحد بخمسة توامين!)

ـ ألا تريد نقوداً؟

ـ لا يا مولاي! إذا كنتم محتاجين إلى مزيد من الديوك آتيكم بها يا مولاي. يمضي شهران ويأتي أحد أصدقاء عمي لزيارته من بهمن آباد فيجلسان ويتحادثان فيقول الضيف:

ـ إن أمَّ فلان مُذْ وضعت البيض تحت الدجاجة قد نذرت كل ديك يظهر فيها لك!

وصدفة ظهر ١٦ أو ١٧ فرُّوجاً مات منها أربعة أو خمسة فراريج والباقي كله ديكة أرسلناه لكم بعد تمام ستة أشهر لها.

ـ هل كانت الفراريج جيده؟

ـ أي فراريج؟

ـ الفراريج التي بعثناها لكم بيد السيد!

ـ السيد! أي سيّد؟ إنه باعني الواحد بخمسة توامين واستلم الثمن!

ـ خمسة توامين ماذا؟! قيمة الديك في بهمن آباد ١٥ توماناً إنه أعلى ثمناً منه هنا!

ـ سألت السيد كم قيمة الديك في بهمن آباد؟ قال خمسة توامين أعطيته خمسين توماناً وجاءني بعشرة فراريج!

ـ لا يا مولاي إنه نذر، كيف يكون ذلك!؟

(يقول عمي) علمت أن السيد كان في بهمن آباد، وكان قد طلب منه صديقنا (الضيف) أنه متى عزم الذهاب إلى «مزينان» يأخذ معه الديكة ويأتينا بها، فاتّفق معه السيد على هذا. يأتي السيد بعد ذلك إلى مزينان ويخبر عمي أن في بهمن آباد ديكة سمينة جميلة، يباع الواحد بخمسة توامين فيأخذ المبلغ ويعود إلى بهمن آباد ويأتينا بالديكة المنذورة!

يقول عمي: بينما كنت أنا وضيفي نتحدث عن الديكة وإذا بالسيد قد دخل علينا على غير علم مسبق منه باجتماعنا في ذاك المكان، وما إن أردنا أن نسأله عن الديكة حتى فاجأنا بصوت عال:

ـ مولانا! لأي شيء أنتما جالسان؟ قد أُريقت الدماء خلف داركم قتل إثنان وثلاثة مضوا! هلك آخر! اكلت النار بيت فلان. . . !

ـ خرجنا بسرعة وبدهشة نتحقق الخبر فلم نجد أحداً خارج الدار، ولا في السوق، سوى رجلين جالسين يدخنان في غليون بلا همّ ولا غمّ! سألناهما: ما الخبر؟ ما الذي وقع؟

أين محل الحادث؟ أجابا: لم يحدث شيء! عدنا إلى الدار فلم نجد السيد! أخرج نفسه من تلك الورطة بتلك المعركة الإيهامية كيلا يقع في المحظور.

إيهام! إيهام!

معركة! مولاي معركة! يريد أن يضيع ويلبس علينا قضية الديكة فيقول معركة! سالت الدماء على الأرض. . .! يريد أن يموّه قضية الديكة فتبقى مجهولة. يختلق حرباً إيهامية، يُقيم قضية «فرعية» إلى جانب القضية «الأصلية» فتنشغل الأذهان مدة مديدة. . .! فمعركة الشعر القديم والشعر الحديث، «والعباء والميني جوب»، والخط الفارسي والخط اللاتيني، «والمتأخر مع المتجدد»، هذه كلها معارك إيهامية فارغة، كلها معركة الديكة! من أجل أن تبقى قضية الديكة منسيّة!

في الفترة بين سنوات ١٣٢٠هـ. ش و١٣٣٠هـ. ش أُختلقت ثمانية عشر إلى عشرين معركة في إيران من أجل أن لا تعرض قضية شركة النفط على الأفكار والأذهان! وفي القرن التاسع عشر الميلادي، عندما بلغت نشاطات الاستعمار ذروتها، ظهر سبعة عشر نبياً[1] في فترة لا تزيد على ثلاث

(١) مُدَّعياً النبوّة.

عشرة سنة، من الصين إلى بوشهر في إيران، من أجل الهاء البلاد الإسلامية واشغالها عما هو أهم من هذا. وفي تلك البرهة من الزمن، بينما كان أبناء شعبنا وأبناء الأمة الإسلامية يتجرعون الموت من ظلم الاستعمار وضغوطه، قتل الاف من الفلاحين الإيرانيين في اختلاف عقائدي مداره: هل أن الإمام موجود في عالم المادة أم في عالم الروح؟

والغريب أنه أثناء ذاك الصراع، ظهر مدع ينفي وجود الإمام في الوجهين المذكورين. ويقول أنه موجود في عالم سماوي بين اللاهوت والناسوت(١) بين العالم العلوي والعالم السفلي! فقُتِل آلاف الفلاحين في سبيل هذه العقيدة، وثار آلاف من المدنيين البائسين ضد مؤيدي هذه العقيدة، فقُتِلوا. من هما طرفا القتال في حرب «العالم السماوي» في القرن التاسع عشر؟ طرفا القتال القروي والمدني، مؤيدو عقيدة (العالم السماوي) ومخالفوهم! لأيّ شيء؟ لنفي أو اثبات العالم السماوي. ومتى ذلك؟ في زمان كانت أوروبا تشهد حرباً رأسمالية، تشهد حرباً انتاجية في ذاك الزمان، جاؤوا هنا ليشعلوا نار حرب (العالم السماويّ)!

---

(١) الناسوت: الطبيعة الإنسانية (وهو الناس) زِيدَ في آخره واو وتاء كملكوت (سريانية).

ما هي حرب (العالم السماوي)؟ إنها الاستحمار! كم من حرب باطلة بلا معنى تقع في هذا الزمان فيتضح عبثها بعد انتصار أحد طرفي النزاع! كل الهتافات والامنيات والانفعالات التي يتخذها فريق ضد الأخر، يتخذها الأب ضد ابنته، تتخذها البنت ضد أمها، يتخذها الفتى ضد الفتاة، يتخذها الحديث ضد القديم، والمتجدد ضد المتأخر. كلها معارك تمويهية إيهامية، كتلك المعركة التي قامت من أجل الديكة! أي لا ترى شيئاً عند التحقيق والتفتيش. فينتهي الأمر بصالح ذاك[1] الذي أشعل نار الحرب، وبضياع الفرصة، وهلاك جيل ويأسه، وحرمانه من ثمرة جهوده وكفاحه. ثم يأتي جيل آخر فيواجه معركة تمويهية أخرى، ومئات من الحروب الأخرى. هذه كلها حروب تمويهية يستفاد منها دائماً! وهي أكبر أداة للاستحمار!

حينما يقع اصطدام في مجتمع ما، ينبغي أن يُنْظَر إليه، هل يرتبط «بالدراية الإنسانية» و«الدراية الاجتماعية» أم بشيء آخر. كم من مسائل فكرية فقهية ودينية وغير دينية وفلسفية وعلمية تعرض الأن على الأفكار والأذهان بشكل كاذب ومحرَّف!؟ كم من محاورات ونزاعات أُجريت حول بعض

---

(١) المُستَغمِر.

الكلمات العربية الدخيلة على اللغة الفارسية! أصروا على حذف الكلمات العربية من جذورها في اللغة الفارسية! حسن، ما سيكون بعد حذفها؟ لا شيء غير النزاع والجدل مدة من الزمن على حذف الكلمات، ثم العجز عن الكلام الصحيح والتصنّع بالبكم والخرس! تحملنا متاعب إلى يومنا هذا حتى بنينا لغة فارسية بليغة، وينبغي الآن أن ننقيها! حسن وبعد ذلك؟ لا شيء! سفه وتفه والقضية شيء آخر! القضية الحقيقية شيء آخر! والحرب الحقيقية حرب أخرى. لكن الصياح وأصوات الاعتراض تنادي دائماً: أيها الناس إن الفاقة والبؤس هو سبب الجهل وعلة جهلنا خطنا! حسن، ماذا علينا أن نفعل؟ نبدله إلى الحروف اللاتينية! حسن جداً! غيرت تركية خطها إلى اللاتينية قبل أربعين عاماً لكن ما زالت متأخرة! بينما تمكنت الصين واليابان في ١٥ سنة أن تمحوا الأمية من بلديهما وأن تصبحا في عداد البلدان الراقية مع أن خطوطهما عديدة وتعد فنّاً بحد ذاتها، كما أن الذين يحسنون قراءتها وكتابتها يعدون من علماء تلك البلاد. أين أنتم يا بشر؟ أين أنتم جالسون؟ هذه كلها حروب استحمارية، أنها معركة الديكة لتمويه الحقيقة.

ـ ٦ ـ

التخصُّص!

كل واحد يسير في نهجه وتخصصه[١] على نحو يغفل عن قضية المجتمع ومصيره! كبقرة أفلاطون تماماً حين لمس أحد حافرها ولمس آخر قرنها ولمس الأخير ذنبها. فكانت نتيجة مجموع اللمس لا تشعر بوجود حيوان. وهكذا التخصص فإنه يسبب انغماس الإنسان في إطار محدود وصغير جداً مجرداً عن كل المجتمع بصورة يصعب لمس المجتمع كجسم واحد شامل. وعلى هذا فإن التخصص يعدم الدراية

---

(١) لا يريد شريعتي في نبذه لهذا الاتجاه (التخصص) الناحية الإيجابية منه في التوزيع المعرفي، كما هو معروف في التطورات الأكاديمية للمنهج البحثي، بمنح أكثر عدد من الأقسام للعلم الواحد، مما يفضي إلى السيطرة على تلك الأقسام ودقة الإحاطة بها، وإنما أراد مسألة افتقاد النظرة الشمولية للحياة والواقع وما يدور فيهما، فينحصر الفرد في جزء من الحياة ضمن اختصاصه، بعيداً عن باقي الأجزاء، لذا يستحيل بعدها إدراك الحقيقة، لأنها تعيش في الكل لا الجزء، سيما ان الكل يُنبىء عن الجزء ولا يمكن العكس ولهذا ضرب شريعتي هنا مثلاً بـ «بقرة افلاطون».

الاجتماعية، كما يعدم من الفرد إمكانية شعور الفرد بنفسه كإنسان مساهم في شتى أجواء الحياة ولكن لماذا يفضي إلى ذلك؟ لأن التخصص يعمل على نمو الفرد من جهة واحدة ويعطله في سائر الجهات. لكن هل التخصص أمر لازم؟ نعم إنه أمر لازم، ولا ينبغي أن يعدم، إلا إنَّه في نفس الوقت الذي نتخصص في فروع مختلفة يمكننا أن نحفظ «كليتنا الإنسانية» و«كليتنا الاجتماعية» في عَرَض «الدراية الفردية» و«الدراية الاجتماعية» في العقيدة.

العلم

إن الوقوف على حقائق عالم الطبيعة، والاطلاع على مظاهر الدنيا الذي هو مهمة العلم، يؤثِّر فينا على نحو نجد الفراغ إلى المعرفة بالنسبة إلينا وإلى مجتمعنا يملأ كذباً! يظن العالم إنه ذو نباهة بالنسبة إلى نفسه ومجتمعه وزمانه، ولكن هذا وَهْمٌ، لأنه «عالم» لا غير! والعلم من أجل العلم[١] أداة

(١) يرفض شريعتي مقولة «الشيء لذاته» في كل مجالات الحياة، سيما مع مفاهيم الدين. فقيمة الشيء لديه بقدر عطائه وفعاليته، وهكذا كان مع كل المفاهيم التي تطرح أيديولوجياً، لذا تنبَّه شريعتي إلى أن خُطا الاستعمار الحديث، تقوم على إشاعة مثل هذه المقولات في العلم والفن والأدب وغيرها، لتفريغ تلك الوجودات الحضارية من فعاليتها، وبالتالي النهاية مع العبث والفوضوية.

انحراف وضلال عن النباهة الإنسانية والنباهة الاجتماعية. وهو الشيء نفسه الذي قاله «هايدجر»، اكبر فلاسفة عصرنا وأستاذ «سارتر»: إنما العلم والحضارة ثمرة ظروف متراكمة عديدة أصبح الإنسان فيها غريباً عن نفسه! أي أنه راح ضحية للتحقيق والعلم والفن والحضارة.

عندما نكون منشغلين في مطالعة أو إكتشاف أو إختراع، فإننا نكون غريبين عن أنفسنا (أي نُعْدَم النباهة النفسية) فلا نشعر، نقع آلة بيد العمل ومن أجله. وقد حصلت الحضارة والصنعة والعلم من مجموع تلك الحالات، فحصولها كان في حالة ابتعاد الإنسان عن نفسه وعن التأمل في نفسه واستغراقه في شيء آخر، لأن عمل الإنسان كآلة ينتج عنه شيء آخر. إذ ظهرت الحضارة والصنعة في لحظات كهذه. ومن هنا فإن العلم يضرب «النباهة الإنسانية» و«النباهة الاجتماعية»!

القدرة المادية والبدنية

وهذه القدرة أيضاً مصيبة كبرى. بدنيّة كانت أم فنيّة أم اقتصادية! فعندما تتجمع لديَّ ثروة كبيرة وتتوفر لي إمكانيات كثيرة، قد أتوهم أن الموفر لتلك الإمكانيات هو «أنا» و«أنا» الذي امتلكها! وهذا انحراف عن النفس. لأني جعلت المادة والثروة مكان «نفسي» ونفيت شخصيتي الواقعية، أو أنّي

اتَّخذت المقام والمنصب الذي وفَّر لي القدرة، بدلاً من نفسي، وخسرت النباهة الشخصية. أو أن لي قدرة بدنية أحسبها شيئاً من قدرتي الإنسانية! لكن حقيقة الأمر غير هذا! فبعض الناس قد تكون لهم قوّة جسدية كقوة الفيل والجمل، أمّا من الناحية الإنسانية قد لا تكون حتى كقوة العصفور! ويحتاجون إلى تجديد الوضوء بشزرة واحدة! وهنا أيضاً تضر القدرة الجسدية بالنباهة والوعي! وقد قيل: «العقل السليم في الجسم السليم»! نعم هكذا لكن البدن الجسم غير الجسم «القوى» وغير الجسم اللامتناسب. كان البعض يقول:

كلما بدنت وسمنت فإنك لن تكون أضخم من البقرة ولو فرضنا ذلك، فعندئذ يحلبونك!

وكلما ازددت قوة أيضاً فإنك لن تكون أقوى من الحمار ولو فرضنا ذلك، فحينئذ يحمّلونك أسفار!

وكلما ازددت سرعة في السير والركض فانك لن تكون أسرع من الفرس ولو فرضنا ذلك، فحينئذ يركبونك!

فالإنسان «الواعي» يمكن أن يكون قوياً إلى حد يسيطر على مصيره. من هو ذاك الإنسان؟ إنه ليس نابليون القوي الذي يعبر عن نفسه وسجنه في «جزيرة سانت هيلينا»:

كأني خشبة صغيرة ضعيفة تلعب بها الأمواج كيفما شاءت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾. نعم، إذا غير الإنسان ذاته وطبيعته فإنه قادر على تغيير مصيره ومصير تاريخه، ولا يرتبط هذا بالجسم والمال والمقام، والذي يبقى للفرد إنسانيته فقط . . .

التجدُّد

يمكن أن تكون الحضارة والتقدم دافعاً للاستحمار. ففي المملكة السعودية «مثلاً» نماذج كثيرة من هذا التقدم الاستحماري. فالعربي البائس هناك سائق السيّارة. ثمن السيارة الكاديلاك هناك ٢٢٠٠٠ تومانا لكنها في امريكا ٣٠٠٠ تومانا[١]! أي أغلى من أمريكا، إذ لا تُفرض الغرامة في السعودية على المتخلفين في القيادة. كما أنه لا توجد لديهم مقررات ونظام موضوع للقيادة والسائقين. لأنه «مذموم» شرعاً ولا يخلو من اشكال! يحمل الشرطي هناك عصاً من الحديد يضرب بها على غلاف السيارات المخالفة بدلاً من الغرامة. ومعلوم أن السيارة التي تتصدع في مكان أو مكانين تستهلك قبل أوانها! ثم إنه لا يوجد هناك مصلح لصفائح السيارات. وفي النتيجة تصبح السيارة بعد سنة أو سنتين غير صالحة للاستفادة، لما أصابها من صدمات بدلاً عن الغرامة المذمومة

(١) العملة الإيرانية قبل تراجع قيمتها الشرائية.

شرعاً! النتيجة بصالح من؟ . . . نعم يجلس ذاك السائق البدويّ برجليه المشققة خلف مقود سيارة «الكاديلاك» أو «الشفر» ويفخر ويتباهى إلى حد لن يجرؤ عليه الأمريكي نفسه! متوهماً أنه جاهلاً مدى خسارته ووقوعه في مكر عدوه(١). ناسياً أنه قبل سنة كان يرعى الإبل في البادية وقد تعلم الأن القيادة! إن هذا الفخر والفخفخة ليسا سوى «الحضارة الاستهلاكية». ويجدر أن أقول لكم أن هذه الحضارة الاستهلاكية(٢) هي أسوء

---

(١) كحكاية الجنرال «اكيوم» تماماً، فإنه سافر مع والده إلى أفريقيا في بداية صنع الزجاج الملوّن، واخذا معهما شيئاً من ذلك الزجاج. فكانا يعرضانه في حفلات زواج رؤساء القبائل والخوانين للزوجين واقربائهما والكبراء فيندهشون من رؤيته! ويعجبون به، فيأمرون باعطائهما قطيعاً من أجود أنواع الغنم مقابل مكافأة وهم فرحون بما حصل لهم من سعادة وتوفيق. فانظروا إلى الهمة والكرم (شريعتي).

(٢) نجد هذه المسألة واضحة جداً عند «مالك بن نبي»، حيث يتناول العوالم الحضارية الثلاث (عالم الأفكار، عالم الأشخاص، عالم الأشياء)، وكان قد ضرب في ذلك مثالاً يوجّه به أسيّة عالم الأفكار وديناميته، وتبعية عالم الأشياء فكان مثاله مع «ألمانيا ودول الخليج»، إذ أعادت ألمانيا كيانها بفترة وجيزة كدولة إقتصادية كبرى، بعد الحرب العالمية الثانية مع أنها لم تبقِ لها زاوية من عالم الأشياء، على عكس دول الخليج، فبعد أكثر من نصف قرن من امتلاكها أرخى ما وصل إليه عالم الأشياء، إلا انها لم تزل دولاً مستهلكة، والسبب أن ألمانيا بقيت تحتفظ بعالم الأفكار حين انهيار عالم الأشياء في الحرب، لذلك عاد لها، على عكس دول الخليج، فخلوها من عالم الأفكار، أبقاها في هذا الإطار الاستهلاكي، ولا يمكن أن تكون منتجة دون ذلك العالم.

وأقبح من الوحشية والهمجية! نعم إنَّ الذي يتحضَّر في الاستهلاك فقط فإنه دون الوحشي. لماذا؟ لأن الوحشي لا يعدم الأمل في تحضره عن طريق الانتاج، لكن المستهلك من غير انتاج يعدم الأمل به طبيعياً. إن السائق السعودي هذا كان له سبعة أو عشرة جمال في البادية، باعها فوفى القسط الأول من دينه جراء شراء سيارة «الكاديلاك» الأمريكية.

تأملوا أي ثروة تنعدم وتخرج من تلك البلاد الفقيرة التي رأسمالها وكل ما فيها تلك الإبل! ثم أخذ يكدح ويتعب حتى تمكن من سدّ الأقساط الباقية. لكن أي شيء عنده الأن؟ قطعة حديد كانت سيارة لبضعة أيام. أما الأن فقد أصبحت صفائح ممزقة تجنباً من أخذ الغرامة! باع الجمال وجلس عدة أيام في «الكاديلاك». بدلاً من ركوب الجمل يركب السيارة فيشغل الراديو! ويكتمه متى شاء! أمر أن تعمل لها مقاعد من الليف وتعطي ألف شكل وصبغة لتكون عربية! أما الأن فقد بقي هو وقطع من الحديد و... لا شيء! ولا يسعه إلا أن يذهب فيفتش عن مكان للسرقة أو يكون سائلاً أو خادماً أو ينتظر الموت في مكان فيريح نفسه. هذا مصيره المحتوم! أين؟ في بلاد تعادل مساحة أرضها ضعف مساحة إيران، ويوجد فيها الأن خمسة آلاف جمل، بينما كانت مركزاً لتجمع الجمال وترتبط حياة كل الشعب بها. وهذا العدد

القليل من الجمال. آخذ إلى الفناء في سبيل اعفاء السيارات الأمريكية من «الغرامات» المخالفة! هذا مفاد الحضارة والتجدد؟ أي الصنعة؟ أو الوحشية وخزن قطع الحديد من السيارات الأمريكية المتلفة؟ أيهما؟ ما أبأسهم وهم فرحون ويشكرون ويحمدون! يقولون: لقد أصبحنا في جنة! لو دخلت بلادنا قبل خمس سنوات لما رأيت سيارة قط! كل ما يمكن أن تراه جمالاً وشقاءً وتعباً! وسيرنا وترحالنا كله على الجمال! أما الأن فلله الحمد، طائرات بوينغ وسيارات مكيفة و. . .! حتى أصبح أحدهم يستعيب ويستحقر نفسه عندما يراك وهو جالس في سيارة «بيجو» مثلاً! لأنّ السائقين العاديين هناك يمتلكون كاديلاك وشفروليه ٧١ و٧٢ فكيف. .؟!

نعم تقدمنا! تَقَدُّمنا ظاهر. بلى! لا شك تقدمتم!؟!

عندما يدخل أميركي أو أُوروبي الرياض هذا اليوم يندهش من التجدد! السيارات كلها حديثة مائة بالمائة من طراز ٥٩ إلى ١٧٢! لا يوجد لها مثيل في أي بلد من بلدان العالم! فمن أميركا إلى الشرق الأوسط كل بلد متخلف اقتصادياً تراه أكثر تجدداً وتجملاً من غيره! فعندما تقلع بك الطائرة من باريس وتهبط في دار السلام عاصمة تنزانيا تندهش من الجمال والجلال وعظمة

البنايات وحداثة العمارات والسيارات التي هي من آخر طراز حديث!؟!

ما هو التجمل؟ هو التقدم في الاستهلاك، الشيء الذي يقضون علينا من أجله ليسلبوا منا أمل الإنتاج وطالعه! من الناحية الفكرية والاقتصادية والفنية.

نعم، الشرق كله ضحية الانتاج الاستهلاكي. كيف؟ وبأي شيء؟ بواسطة الاتباع! التقليد الأعمى!.

الحريات الفردية:

الحرية الفردية أداة تخدير كبرى لإِغفال الحرية الإجتماعية، حيث النباهة الإجتماعية القضية ذات الأهمية الكبرى. إنهم ينادون بالحرية الفردية، ويدعونك لها، من أجل تمويه الأذهان، والغفلة عن «النباهة الإجتماعية»، حيث يرى الإنسان نفسه حراً من الناحية الفردية، في غذائه وشهواته. كقفص فيه طير، وقد وضع في صالة مغلقة تماماً، ثم فتح باب القفص. إنه شعور كاذب بالحرية.. لأن الأسير الذي يعلم أنه مأسور، يحاول أن يطلق نفسه، ويتحرر من الأسر، بينما الذي لا يعلم أنه أسير، ويشعر بالحرية، فشعوره وهم وكذب، وهو يشكر الله ويحمده على تلك الحرية المزيفة.

حرية الجنس:

لحرية الجنس نوعان إثنان:

أحدهما يقدمه الغرب هدية للشرق، واسمه «حرية الجنس» بدلاً لما ينهيه ويسلبه من المواد الخام! فالغرب يرى أن عليه أن يتحف الشرق مقابل ما أخذه من المواد الخام، ولذا يسمح للشرقيين بأن يكونوا أحراراً من «الناحية الجنسية» بلا قيد ولا مانع. وبعد ذلك، تأتي أجهزة الدعاية، والمواصلات الجماعية في الشرق لتؤكد وتدعو إلى «الحرية الجنسية» عند جيل يتراوح سنة بين ١٨ و٢٥ سنة. وعلى هذا، رأى الغرب من اللازم عليه أن يلهيَ هذا الجيل ويشغله «بالحرية الجنسية». وفي اعتقاده، أن هذا الجيل يتعرض لحالتين من الإضطراب: أحداهما من أجل «الحرية الإجتماعية» والثانية، حالة الإضطراب والتشويش الناتجة عن «الأزمة الجنسية»، وهكذا، رأى الغربيون أنه من الأحرى إفساح المجال، أمام هذا الجيل في «حرية الجنس» ليعدموا منه «الشعور» بالحاجة إلى «الحرية الإجتماعية» الزائدة! أجل! إن بإمكانهم أن يلهوه خمس سنوات أو ست، أي طيلة «الأزمة الجنسية» التي تضغط عليه، حتى ينشغل عن «الحرية الإجتماعية»، فيتلهى بأهوائه ونزواته، إلى حد يفقد معه شعوره، وبعد انقضاء هذه المدة يرتفع الخطر.

حرية المرأة:

ماذا يقصد بحرية المرأة؟ والقصد، الحرب التمويهية! من أجل الإِثارة، وفتح باب الجدل، والاختلاف بين الرجل والمرأة، والهائهما عن الأساسيات من القضايا العادلة، عن حقوقهما، عن مشكلة الشرق والغرب، عن مشكلة المستعمرين والخاضعين للاستعمار. . . .

التقليد والتبعية:

لقد قيل الكثير عن هذه القضية، لكن، الشيء الذي لم يتطرق أحد إليه هو «دور المرأة في قضية التقليد». إن أكبر عنصر، يلعب دوراً أساسياً في «الحضارة الإستهلاكية» هو المرأة، حيث لها السهم الأوفر، والدور الكبير، في نشر واشاعة الحضارة الاستهلاكية، وتطور الأنواع والفرق والجماعات والعلاقات العائلية والروابط الإجتماعية والسياسية في الثلاثين سنة الأخيرة، مما يقتضي بحثاً خاصاً لا مجال له هنا، لكني، أضرب مثلاً في التبعية وتقليد الآخرين: والمثل مأخوذ من أوروبا، حيث يذهب الأوروبيون إلى الغابات لصيد القردة حية سالمة. فيضع الصيادون اناءً مملؤً بالصمغ اللزج تحت الأشجار، أو على ضفاف الأنعار، في ممر القردة، وأناءً آخر في زاوية أخرى، يشبه الإِناء الأول، لكن فيه ماء!

ويجلسون ازاءه بانتظار مرور القردة. . وعندما تأتي وتقف حذاء الإِناء المليء بالصمغ، يرفع الصيادون أيديهم، فترفع القردة أيديها، يغمس الصيادون أيديهم في الأواني المليئة بالماء، فتغمس القردة أيديها في الأواني المليئة بمادة الصمغ اللزج، يخرج الصيادون أيديهم، ويضعونها على جباههم كحالة التيمم، فتعمل القردة مثلهم تماماً، يمسح الصيادون بأيديهم على وجوههم وعيونهم، فتمسح القردة أيضاً على الوجوه والعيون! يقف هؤلاء مقابل الشمس، فتقف القردة مقابل الشمس!! وبعدها. . تجف تلك المادة على وجوه القردة، فتلصق أجفانها ويتعذر فتحها! وعندها يذهب الصيادون إليها ويلقون القبض عليها بسهولة!!.

الخلاصة

وفي النتيجة، يعمل الإستعمار القديم على اشغال الشعوب وإلهائها عن «النباهة الإنسانية» و«النباهة الإجتماعية» لإنشاء جيل مطابق لمقاييسه وحساباته. كأن تكون زنته أربعة مثاقيل، وطول باعه أربعة سنتمترات فقط، وطريقته المثلى، لحية من الأمام، وعباءة من الخلف، وكتاب أدعية، ومسجد، وصلاة، وصيام، وتعزية! هذا برنامجه اليومي والسلام.

هذا جيل، ينشئه الاستحمار القديم، جيل فارغ، مضطرب، لا يتحمل أي مسؤولية! أما الاستحمار الجديد، فمن أجل أن يسلب «النباهة الإنسانية» و«النباهة الإجتماعية» يتمثل ويتخلص بـ«عقلية» وسيارة «بيجو» ورزمة مناديل «كلينكس» وقدر من «المتاع» و«محفظة سفتجات» و«ديون» والسلام، لا فكر ولا تعب، لا هم ولا نصب، ولا هم يحزنون. هذا هو لا أكثر!!.

أعيدوا النظر إلى فتياتكم، اللواتي تزوجن، واللواتي لم يتزوجن بعد، وانظروا إلى ما كتبن عن أنفسهن، وكيف عبّرن عما يجول في باطنهن، حين كن، في الصفوف الثانوية الخامسة والسادسة، من سن الـ١٨ إلى ما فوق، تجدوا تشاؤماً وفلسفة. . . رباه، لِمَ خلقتني، أيها الموت لِمَ لا تأخذني؟ ألا موتاً يباع فأشتريه!. كلام مليء بالعواطف الخالية والعبارات الروائية. . ورقة النفس، إنها تظن نفسها سهرت الليل كله من شدة المرض! ولقد أرادت أن تنتحر، أو عزمت أن تلقي في بئر. . و. . و. . من هذه الخيالات والتصورات. .

لكنها الآن، بعد أن تزوجت، أضاعت «طرقها المثلى» كلها في الشهري أو الثلاثة أشهر الأولى من زواجها، وأعطت طومار ذكرياتها لشخصٍ يقرأه، ولم تذهب لتسترده، كما أنها تستحي أن تفتحه، لأي شيء؟ لأن الأقساط والديون أمرضتها، وافلجتها تماماً، وليس من شفاء لآلامها سوى بطاقات اليانصيب، واقتراع بنك (عمران)[١]، وما أسرع ما تلتقي طرفا دائرة عمرها، فتخيب آمالها وتذهب هباءً!!

هذا جيل «الإستحمار» الحديث، وذاك جيل «الإستحمار» القديم. الإستحمار الذي بات يرصد كل واحدٍ

---

(١) جوائز سحب البنك الوطني.

منا، نخرج أنفسنا من شكله القديم، فيتلقانا بشكله الحديث، نتمرد عليه في مكان، فيلهينا ونقع في حبائله في مكان آخر، نرفضه من ناحية، فيسخرنا من ناحية أخرى! نتنبه إلى جانب منه، فيشغلنا في جانب آخر، نكتشف حرباً ايهامية، فيوقعنا في حرب ايهامية أخرى. . وهكذا دائماً!!.

وعلى هذا، فإن جيلنا أسير في أيدي تلك القدرات، إلى حد يمكنها أن تصنعه كيفما شاءت، وطبقاً لمقاييس معينة، تنتجه كما تنتج من مادة المطاط (البلاستيك) أنواع الأواني والسلع، انهم أهل علم وصنعة، ولديهم تلفزيون وصحف ومعارض ومسرحيات وفنون، وإلى جانب هذا كله، استخدموا الترجمة والعلوم، وعلم الإجتماع، كما أن وحدة القياس العالمي لهم أيضاً. . فكيف نطمئن إذاً إلى عدم الوقوع في أسر «الإستحمار القديم» أو «الإستحمار الجديد» كيف؟ ونحن الصغار البسطاء الغافلون نحزن ونصاب «بعقدة» من أجل أي شيء يسير ثم نسر ونفرح لأمر جزئي. . أحزاننا وافراحنا ومثلنا العليا يسيرة جداً!.

إن أي قضية فردية أو اجتماعية، أدبية كانت أم أخلاقية أم فلسفية، دينية أو غير دينية تُعْرَضُ علينا، وهي بعيدة عن «النباهة الإنسانية» و«النباهة الإجتماعية»، ومنحرفة عنهما، هي استحمار، قديم أو جديد مهما كانت مقدسة والسلام.

الفهرس